اقرأ

خالدون فى الوطن



إبراهيم المصرى

دار المعارف بمصر

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

خالدون في الوطن

إبراهيم المصري

خالدون في الوطن

اقرأ ٢٨١

دار المعارف بمصر

اقرأ ۲۸۱ – مايو سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

« فى تاريخ البشرية زهور دامية لا يمكن أن تذبل ولا يمكن أن تموت . وهذه الزهور الخالدة الرائعة الشبيهة بالمشاعل ، هى معارك الاستقلال والحرية » . . .

إبراهيم المصرى

من بلاد الإغريق :

عذراء الوطن

« تمثل هذه القصة روح البطولة والوطنية التى كانت مستولية على الشعب اليونانى أثناء حرب الاستقلال ضد الفرس وملكهم داريوس عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت هذه الحرب فى ميناء ماراتون على بعد عشرين ميلاً من أثينا وتولى قيادتها الزعيم الوطنى والقائد العبقرى ملتيادس ».

* * *

ابتسم الكاهن « هرمس » ابتسامة رقيقة ، وقال وهو ينظر بعينيه المستديرتين إلى ضيفه « شالكاس » :

— إنى لأستغرب كيف تكون فيلسوفاً ثم تتعلق بأشياء عارضة لا يلبث أن يأتى عليها الزمن . فى رأيى أن من كان مثلك يجب أن ينظر إلى أحداث هذا العالم كما ينظر الرجل العادى إلى اختلاف فصول السنة . . .

فضحك الفيلسوف « شالكاس » والتفت إلى زميله « أوريون » وقال له :

— ما رأيك فى هذا اللون من التفكير الذى أصبح يستعذبه صديقنا هرمس ويشيد به ويدعو إليه ؟ . . .

فأطرق أوريون لحظة ثم رفع رأسه الصغير ، فبدا وجهه الذى نقره الجدرى ، عابساً متجهماً محتقناً ، أشد دمامة مما هو عليه ، وحاول أن يتكلم . ولكن أعصابه المتوترة تغلبت عليه وضاعفت انفعاله ، فلم يستطع إلا أن يرسل شبه صيحات مخنوقة مبهمة .

ورمقه الفيلسوف بنظرة مشفقة ثم تحول إلى صاحب الدار وقال :

ـ أنت تأخذ عليّ يا هرمس اهتمامى بشئون وطنى ، وترى أن من واجبى كمفكر أن أظل بمعزل عن السياسة ، وأن أعيش فى عالمى الخيالى المغلق . ولكنك تنسى أن بلادى هى مادة فكرى ، وأن المجتمع الذى يكتنفنى هو الذى يغذى عقلى وقلبى ، وأن الأرض التى تحملنى هى التى توحى إلىّ مختلف الأفكار والعواطف . فكيف تريدنى على أن أنفض يدى منها ، ولا أحفل بكفاحها المقدس ضد أعدائها ، ولا أساهم فى هذا الكفاح بكل ما أوتيت من قوة الفكر والبيان . إنك بذلك تساعد على إفناء المادة التى أعيش منها ، وتصيرنى أنا نفسى إلى عدم .

فقال هرمس وهو يشيح بوجهه كى لا تقع عيناه على وجه أوريون المشوه :

ـ ولكنك كلما تعلقت ببلادك ، انطويت على نفسك ، وضيقت أفق تفكيرك ، وآثرت مصلحة اليونان العارضة على خير الإنسانية الباقى .

فعقد الفيلسوف أصابعه الضامرة على بطنه المتكور ، وقال دون أن يفارقه هدوءه :

ـ الحرية التى أنشدها لبلادى هى القوة التى لا بد أن تتوافر لى أولا ، كى أستطيع فى دائرتى المتواضعة تحقيق الخير والحرية للإنسانية كلها .

فندت عن أوريون صرخة أعرب بها عن إعجابه بأستاذه . ولكن هرمس لم يعبأ به واستطرد :

ـ وإذا كانت القوى غير متكافئة ؟ . . . إذا كانت جيوشنا لن تستطيع الثبات أبداً أمام جحافل الفرس ، أفلا يكون من الخير لنا أن نستعيض عن الحرب بالسياسة وأن نخدع أولئك القوم ونتقرب إليهم ، عسى أن تنفع الحيلة حيث أخفقت الحرب؟

وهنا صاح الفيلسوف* :

– ولكن الحرب لم تنته بعد . وليس معنى تقهقرنا فى المعركة الأولى أن الفشل مقضى به علينا .

فقال الكاهن هرمس وهو يبتسم ويربت على كتف الفيلسوف :

– لا . . . لا ياصديقى شالكاس . . . إنك لم تعد فيلسوفا بالمرة . إن عواطفك الوطنية تطغى عليك وتؤثر فى تفكيرك . وإنك الآن لتفضل هزيمة بلادك وخرابها على استخدام عقلك وذكائك وحنكتك لإنقاذها .

فقطب شالكاس حاجبيه وقال وهو يطيل النظر إلى مضيفه :

– لا أنت ولا أنا سنصبح شيئاً مذكوراً إذا ما فقدت البلاد معركة استقلالها ضد جيوش داريوس ! . . . وأنه لمن البديهى أن الحكمة والفلسفة والفنون والشرائع لن تزهر فى أمة من العبيد . . . والواقع أنى عندما أكافح من أجل حرية بلادى ، إنما أذود فى الوقت نفسه عن حرية فكرى ، أى عن تطور الفكر البشرى إطلاقاً . لهذا السبب أنا من أنصار الحرب ، ومن أنصارها حتى النهاية !

فأسبل هرمس عينيه المستديرتين الضيقتين ، وتظاهر بالتبسط والمسايرة والتسليم . ومضى الفيلسوف يفكر وهو يدير إبهاميه على بعضهما فى حركة هادئة . وانطلق أوريون يضحك بلا مسوغ ضحكات مزعجة متقطعة ، وقد تهدل لحم خديه ، وارتعش أنفه الأفطس ، وبرزت من بين شفتيه الغليظتين أسنانه الحادة السوداء .

وقر فجأة وزايلته نوبة الضحك ، وارتد وجهه ساكناً كئيباً حزيناً . فلاح عليه ضوء غريب من جمال لم يلحظه ولم يبتهج له غير الفيلسوف شالكاس

وقال صاحب الدار بعد فترة :

– لقد أنذرتكم وأنذرت سواكم وما أنا بعد بمسئول إذا حلت الكارثة ! . .

وهنا انتفض أوريون الدميم ، واستطاع بعد جهد أن يقول :

ـــ أية كارثة ؟ ! . . .

وتلفت يميناً ويساراً كأنه يشهد الملأ على ما سيقول وأردف :

ـــ نحن سنكسب هذه الحرب . . . سنكسبها . . . سنكسبها ! . . .

وطفق يضحك كمعتوه ويهز جسمه هزاً متوالياً ، كأنما هو يرقص على نغمات موسيقى النصر . ثم صمت مرة أخرى وأربد وجهه وعاودته كآبته . فانتحى زاوية قبع فيها وظل يحدق باهتمام إلى قدميه .

فلم يتمالك الفيلسوف نفسه ، وانفجر بالضحك هو الآخر وقال :

ـــ ما أمتع حياتي معك يا أوريون ! .. إن تقلباتك الغريبة تسحرني وتفتنني ! . . . إنك تمثل الحياة الكبرى ، وكل ما فيها ينعكس عليك . كل ما سوف يأتي به القدر يستشعره قلبك وتفيض آثاره على محياك . وما دمت أنت مؤمناً بالنصر فأنا مؤمن به أيضاً . . . فلا تكتئب ولا تحزن . . . إن « هستيا » تقدرك وتثق في إلهامات بصيرتك ، وتعتقد نفس اعتقادك ولو كره والدها . فنحن ثلاثة : هي وأنت وأنا ، ولسوف نتغلب بعون الآلهة على ضعف هرمس وشكوكه .

فغافل أوريون هرمس ومال نحو أستاذه وهمس في أذنه متوسلاً وهو يرتجف :

ـــ لا تنصرف . . . ابق قليلاً . . . أريد أن أراها في حلتها المقدسة البيضاء قبل أن تذهب إلى المعبد . . .

فطمأنه الفيلسوف بنظرة معنوية ، ثم تحول إلى مضيفه وقال :

ـــ لابد أن سيكون احتفال هذه السنة رائعاً . . .

فأجاب الكاهن هرمس وهو منصرف إلى تفكيره :

ـــ ماذا تقول ؟ . . . نعم . . . أجمل العذارى من أرقى بيوتات اليونان

اشتركن فى حياكة ثوب الإلهة « بالاس » الذى سنكسو به اليوم تمثالها . سيكون الموكب كما ألفتموه عظيماً . . . ولكن رهطاً كبيراً من الأعيان والوجهاء سيشترك فيه هذا العام ، كما سترتل « ميرا » لأول مرة ، يصحبها جمع من الفتيات ذوات الجمال الباهر والصوت الرخيم .

فهتف أوريون وهو يصفق :

ـ سيكون عيد « بالاس » بشير النصر !

ثم اتجه بغتة نحو هرمس وركع أمامه نصف ركعة ، ثم تشجع وقال فى احترام عميق :

ـ آمل وأنت الكاهن الأول فى معبد الإلهة « بالاس أتينا » ألا ترفع إليها اليوم صلواتك وأنت فى شك من انتصار أبنائها ! . . .

فرمقه هرمس بنظرة ساخرة . وقال فى صرامة وشموخ :

ـ إن سلامة نيتى تثبت لها طهارة قلبى .

وكان الفيلسوف يحدق إليه وهو ينطق بهذه العبارة . فلما التقت عيناهما ابتسم هرمس ابتسامة خفيفة وأشاح بوجهه وأطرق . وفى هذه اللحظة سمع صوت عذب يقول : هأنذى يا والدى . . .

وتلفت الكل وإذا بهستيا الجميلة واقفة بباب مخدعها تبتسم لهم ، وترفل مبتهجة فى حلة العيد الجديدة البيضاء .

وصاح الفيلسوف وهو يتأملها معجباً بها :

ـ كم أنت جميلة يا هستيا !

فطربت الفتاة لهذا الإطراء ، وتألقت عيناها الزرقاوان ، وانسكب على كيانها كله ضوء من الزهو الفاتن البرىء . ولكنها قالت فى وداعة ورقة :

ـ سترى فى الموكب فتيات أجمل منى بكثير يا أستاذى العزيز ...

فلوح الفيلسوف بيده وقال :

ــ أنت أجملهن جميعاً .

فأمالت هستيا رأسها على كتفها بحركة لطيفة ،وقالت وقد ارتعشت جدائل شعرها المصفف حول رأسها كتاج من ذهب :

ــ لقد علمتنى التواضع يا أستاذى ، فحذار أن تلقى فى نفسى بذور الكبرياء .

فقال الكاهن هرمس وهو ينظر إلى ابنته نظرة ملؤها الاعتزاز :

ــ يحق لك أن تفخرى يا ابنتى فالكبر من شيم الجمال . . .

وأردف مداعباً وهو يبتسم :

ــ آه لو رآك خطيبك « كرونوس » على هذه الصورة ، إذن لازداد جنوناً بك . . .

فغضت الفتاة من بصرها حياء وقالت فى خفر ودل :

ــ ألن تكف عن ذكر هذا الموضوع يا أبت ؟ . . .

فقال الفيلسوف وهو يحك صلعته :

ــ هذا أحب موضوع إلى الفتيات يا هستيا .

فتضرجت وجنتاها ، وشاع الخجل والاضطراب فى صوتها ، وقالت وهى تلقى على الفيلسوف نظرة عتاب :

ــ وأنت أيضاً يا أستاذى ؟ ! . . . إنى أغفر لك لأنى أحبك ، ولكن عدنى بألا تطرق هذا الموضوع مرة ثانية . . .

فقهقه الفيلسوف وقال :

ــ إذا امتنعت أنا عن الكلام فيه فلن تعدمى أنت وسيلة لإثارته بنفسك . . .

فضج الوالد بالضحك ، وتململت هستيا ، وتحولت عنهما إلى أوريون . ولكنها ما كادت تدنو منه وتنظر إليه ، حتى انقبض محياها ، وخنق الاشمئزاز الكلمات فى صدرها على الرغم منها .

وكان اوريون قابعاً فى زاويته ، رافعاً رأسه إليها ، يتأملها بنظرات ملؤها العبادة والتقديس . فلما ابتعدت عنه ، وأحس منها ذلك النفور الطبيعى الذى لم تكن لها حيلة فيه . طوى رأسه على صدره كى يخفى وجهه الدميم ، وأرسل أنة قصيرة ، وانكمش ولم يتحرك .

وبعاطفة إنسانية نبيلة غالبت الفتاة نفسها وتحولت نحو أوريون وقالت له :

ــ ألا ترى أن من واجبى اليوم ألا أفكر فى نفسى ، أو فى خطيبى ، أو فى أية سعادة غير سعادة ومجد وطنى ؟ . . . كل عذراء فى بلاد اليونان ، ولا سيما أنا بنت الكاهن الأول ، يجب أن تتجه اليوم بعقلها وقلبها إلى المعبودة « بالاس » كى تعجل بعقد أكاليل النصر على هامات أبطالنا !

فهز الفيلسوف رأسه ، وتعمد أن يقول كى يحرج هرمس :

ــ ما أعجب أن تناقض البنت آراء أبيها .

فتطلعت هستيا إلى أستاذها وقالت فى دهشة :

ــ ما معنى هذا ؟ . . .

فأجاب الفيلسوف على الفور :

ــ والدك يرى أن النصر على الفرس ضرب من المحال ، وأنه أولى بنا وأجدى لمصالحنا أن نتفق معهم ونلقى السلاح .

فبهتت هستيا ، وامتقع لونها وتبدلت فى لحظة . تغضن جبينها وارتسمت عليه صراحة مهيبة . ثم اتقدت عيناها واتسعتا ، وقدح منهما بريق غضب واستنكار . زايلها كل خفر وكل رقة ، وتقلص عنها جمال العذارى ، وأغدق عليها السخط جمالاً آخر أشد تأثيراً وأوقع فتنة . فمشت إلى والدها كامرأة راشدة كاملة ، وقالت فى صوت جاف جهير :

ــ أصحيح ما قاله شالكاس يا أبت ؟ .

فاضطرب هرمس ، وأجاب متلعثماً وهو يرشق الفيلسوف بنظرة حانقة :

ــ هذه الفكرة عرضت لى . . . وليست من الأهمية بحيث . . .

فقاطعته هستيا منفعلة :

ــ بل هى من الخطورة بمكان عظيم . ولو تسربت منك أنت الكاهن الأول ، وتغلغلت فى أوساط الشعب فى أيام المحنة هذه التى نجتازها ، فمن ذا الذى يضمن أن تظل الأمة متماسكة أمام عدوها فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو موت ؟ . . .

وصمتت فجأة ثم صرخت :

ــ أنتم تعلمون شدة حبى لخطيبى كرونوس ، ولكنى برغم هذا الحب أوثر أن يقتل فى ساحة الحرب على أن يعود إلىّ حياً وفى صدره خيبة الهزيمة . . . الموت . . . حب الموت يا والدى . . . إنكار الحياة . . . الزهد فيها . . . التحرر من مباهجها . . . التغلب على سلطانها باحتقار هذا السلطان . . . تلك هى المبادئ التى أخذتها عن أستاذى شالكاس والتى أعلم علم اليقين أن فيها سعادة وطنى كما كانت فيها حتى اليوم سعادتى !

وكانت تتكلم وأوريون شاخص إليها ، يتأمل وجهها الملتهب ، وعينيها القاسيتين ، وشفتها القرمزية وهى ترتجف ، وإشاراتها القاطعة ، وحركاتها الفياضة بالإباء والعزة . فغفر لها من صميم قلبه نفورها العميق منه ، لفرط ما شاهد من إخلاصها وصدق وطنيتها .

وفجأة وقع بصرها عليه فلم تتقزز ، بل اتجهت نحوه ، وأمسكت بذراعه ، وتقدمت به إلى حيث كان يجلس والدها واستطردت :

ــ ماذا قدمنا نحن للوطن ؟ . . . لا شىء ! . . . أما أوريون الذى منعه الضعف والعجز البدنى عن حمل السلاح والذى لم يستطع أن يقدم للوطن حياته ، فقد وهب خزانة الجيش كل ثروته ! . . . يجب أن نقتدى

به . وإن أعوزتنا روح التضحية فلا أقل من أن نصمت وندع اليونان تقاتل ، موحدة متراصة الصفوف مرتاحة الضمير !

ورنت بطرفها إلى أوريون وربتت على كتفه . فتفتح قلب الرجل الدميم المنبوذ ، وابتهجت روحه ، وانحدرت على خده المشوه دمعة .

وأحست هستيا أنها قد أسرفت فى القسوة على والدها . فاندفعت نحوه وطوقته بذراعيها ، ومضت تبتسم وتقول بصوتها الناعم وقد عاودتها فتنة العذارى الرقيقات المستضعفات :

ـ سامحنى يا أبت . . . ما قصدت الإساءة إليك . . . لتنصب على لعنة الإلهة « بالاس » فى يوم عيدها العظيم إن كان قد خامرنى أى شك فى وطنيتك . . . اعف عنى . . . ابتسم لى كعادتك . . . انس ما بدر منى . . . وهات يدك . . .

وتناولت يد والدها وقبلتها فى خشوع . ثم انثنت إلى أستاذها وقالت وقد تغاضت عن أوريون كعادتها ، وأهملته كأن لم يكن له وجود :

ـ ألا ترى أنى بوصفى بنت الكاهن الأول يجب أن أحمل الآنية المقدسة وأتقدم موكب العذارى ؟ . . .

فأجاب الفيلسوف :

ـ يكون منك أجمل وأروع وأنت بنت الكاهن الأول فى معبد الإلهة التى سنحتفل اليوم بعيدها ، أن تضربى المثل الصالح فى التواضع ، وأن تقدمى عليك أترابك وتسيرى فى مؤخرة الموكب . . .

فحنت هستيا رأسها وقالت :

ـ لك ما تريد يا أستاذى . وسأظل فى المؤخرة وأنت العظيم إلى جانبى .

ولم تكد تتم عبارتها حتى سمعت خارج البيت حركة وأصوات مصحوبة بلجب كبير .

فصاحت هستيا وقد غمر الفرح وجهها :

— جاءت العذارى وأزف الموعد . . .

فهتف أوريون :

— هيا بنا . . .

فرمقهم الكاهن هرمس بنظرة جانبية ، ثم قال فى هدوء وهو يشيح بوجهه ويبتسم ابتسامته الخفيفة الغامضة :

— تقدمونى إلى المعبد . يجب أن أغتسل وأتطهر قبل أن أشرع فى الصلاة . تقدمونى ولتبارككم الآلهة .

فنهض الفيلسوف شالكاس ، وتأبطت هستيا ذراعه . وسار أوريون خلفهم بخطى التابع القانع السعيد ، وخرجوا جميعاً متجهين نحو المعبد .

* * *

ولم يكن هرمس فى حاجة إلى التطهر . إذ الواقع أنه كان قد اغتسل وتطهر منذ الفجر . فلما ألفى نفسه وحيداً ، ذكر كل كلمة قالها للفيلسوف ، وطفق يضحك . ضحك ضحكات ساخرة هادرة متوعدة شبه وحشية . ثم اندفع نحو نافذة صغيرة وفتحها ، ثم أطل منها ، وجعل يتأمل الشارع العريض وهو يلهث . وفجأة أبرقت عيناه ، وارتعش بدنه كله ، وصاح :

— ها هم . . .

وأسرع وفتح الباب . فنفذ منه سبعة رجال فى مقدمتهم رئيس الشرطة والشاعر الغنائى المشهور أكتيون . فاستقبلهم الكاهن مرحباً ، ثم أهاب بهم وهو يتعجلهم :

— الوقت ضيق وثمين . . . فتكلم . . . تكلم يا أكتيون . . . ماذا فعلت ؟ . . .

فقال الشاعر وهو يصعر خده ويشمخ برأسه زهواً وكبراً :

ــ لقد أعددت المنشورات وهى معى . . . هذه هى . . . موقعة بخاتمك وخاتم الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة . . . سنوزعها على الشعب فى أيام العيد . . . ثم نبدأ بإشعال نار الثورة بعد غد ، فنحتل المرافق العامة ، وننظم المظاهرات ضد الحرب ، وننادى بسقوط القائد ملتيادس ، وضرورة عقد الصلح مع الفرس وملكهم داريوس . . . .

فهتف رئيس الشرطة :

ــ مرحى لك يا أكتيون . لأنت بطل الثورة ولا ريب ، وزعيمنا الأوحد فى المستقبل القريب .

فاندفع الكاهن هرمس ، وعانق الشاعر وقبله وهو يردد :

ــ أنت زعيمنا . . . أنت منقذنا . . . امض فى سبيلك ، وهيئ رجالك للعمل وأسرع . إن كل لحظة محسوبة علينا . فابدأ بتوزيع المنشورات فى الحى الشرقى من المدينة حيث يقطن التجار أصحاب المصالح . أما رئيس الشرطة فسيحرض الحرس كله على عدم التدخل لمنع المظاهرات . وأما أنا فسأنطلق من فورى إلى المعبد حيث أطلع الكاهن الأعظم على ما قمتم به من جهود ، وأشغل الجماهير بصلوات وحفلات العيد . . . اذهبوا . . .

فانحنى الجميع فى احترام وقبلوا يد الكاهن . فشيعهم هرمس حتى الباب وهو يحدق فى عينى رئيس الشرطة تحديقاً غريباً ، وينظر إلى الشاعر المزهو أكتيون نظرات ملؤها التشجيع والتقدير والإعجاب .

ولما ألفى نفسه بمفرده مرة ثانية ، لم يضحك ، بل ضم قبضتيه ، وعض على شفتيه ، وأرسل شبه صرخة ، ثم التقط أنفاسه واندفع متجهاً نحو « الأكروبول » كى يلحق بموكب العذارى .

* * *

وكان الأكروبول قلعة أقيمت فى أثينا فوق صخرة عالية شيدت عليها معابد مختلفة ، منها البارتنون معبد الإلهة بالاس . وكانت الجماهير الغفيرة قد احتشدت حول المعبد . أما المعبد نفسه فكان مقسما إلى مناطق ثلاث : المنطقة الأولى رحبة فسيحة أعدت فى الجهة الشرقية لتلقى القرابين والنذور ، والمنطقة الثانية رحبة أيضاً أقيمت فى الجهة الغربية لحفظ كنوز الإلهة وجواهرها . وأما المنطقة الثالثة فكانت تبرز فى الوسط ، وينهض فيها على قاعدة عظيمة تمثال الإلهة نفسها .

وكانت الجماهير ومعظمها من أبناء الشعب البائسين الكادحين وذوى العاهات ، تتجمع عند أبواب البارتنون فى انتظار مقدم الموكب وبدء الصلاة .

فالمشلولون والمقعدون والعميان ، والأمهات الحاملات أطفالهن المرضى ، والشيوخ الذين أعيتهم مكافحة الهرم ، والمصابون بداء الصرع ، والأرامل الحزينات ، والمطلقات المنبوذات ، والنساء العقيمات اللاتى يتمنين الحمل ويشتهين الأمومة ، كل أولئك كانوا يتزاحمون بالمناكب نحو المعبد ، ومن خلفهم طوائف المتفرجين من أبناء الطبقة الوسطى ، وأرهاط الشباب الماجن العابث من أبناء الطبقات العالية ، جاءوا لإمتاع نفوسهم بالاندماج فى حفلات العيد ، والاشتراك فى الرقص مع الغوانى ، والاستماع لتراتيل المغنية « ميرا » ومشاهدة موكب العذارى .

أما الرجال والنساء الذين ذهب إلى الحرب أبناؤهم أو أزواجهم أو إخوتهم ، والذين فقدوا الكثيرين منهم فى ميدان القتال ، فقد كانوا فى المقدمة متجمعين بعضهم حول البعض الآخر ، يتنسمون أنباء القتال ، ويواسون المرضى ، ويبتهلون إلى الإلهة بالاس أن تعجل يوم الخلاص والنصر .

ولم يكن ليلفت النظر فى هذه الجموع سوى الغوانى المحترفات بائعات الهوى . فقد كن يبرزن من بين الجماهير بأرديتهن الزاهية ،

وضحكاتهن العالية ، ونكاتهن الصارخة ، ووجوههن الوقحة المطلية بالمساحيق . وكن يتحرشن بالشبان الأثرياء ، ويبادلنهم مختلف النكات ، ويعقدن معهم أواصر الصداقة ويضربن لهم مواعيد الغرام .

وكانت الأحاديث تدور حول المرض والحرب والحب . وكان الفرح بالعيد يخفف من وطأة المرض ، والأمل العميق فى النصر يحجب كوارث الحرب ، ومشهد العذارى المنتظر يؤجج فى النفوس شعلة الحماسة ويضرم عاطفة الوطنية وعاطفة الحب .

وفجأة ترامت إلى الآذان أنغام موسيقية بعيدة . فاضطربت الجماهير واختلطت ، ومالت صفوفها المتراصة متدافعة كالموج ، وارتفع صراخها وهتافها عاصفاً مدوياً كهدير بحر خرافى هائل .

وتقدم الموكب شيئاً فشيئاً ، وأفسح له الشعب الطريق . ولم يكد يبدو هرمس ومن خلفه الكهنة يتبعهم خدم الهيكل حتى استولى على الناس شبه جنون . فاندفعوا نحو الكاهن الأول ، وداس كبيرهم على صغيرهم ، وولولت النساء ، وبكت الأطفال ، ولم ينعم غير نفر قليل بلثم رداء هرمس خادم الإلهة بالاس .

وفى أقل من لحظة تبدلت نفسية الجماهير ، وخمدت أصواتها ، وقر فيها النظام ، واحتواها الصمت .

تراجع الناس واصطفوا خاشعين ، ثم اشرأبت أعناقهم ، واندلعت عيونهم ، ومضوا يحدقون فى لهفة ونشوة إلى موكب العذارى .

وكن عشرا من أجمل وأفتن بنات أثينا ، يسرن متئدات شامخات ، صارمات الوجوه فى جلال مهيب ، تائهات العيون فى ورع قدسى ، ملتهبات الخدود فى فرح محتجز عميق ، يحملن فى كبر واعتزاز ثوب الإلهة الجديد الذى حاكته أناملهن ، وزركشته ، ووشت مختلف أطرافه ، ورسمت عليه صوراً رائعة من شتى المعجزات التى قامت بها الإلهة ،

ونقشت فيه أسماء الأبطال الذين استشهدوا وماتوا فى سبيل الوطن .

وجثت الجماهير عند مرور الموكب ، وحنت رؤوسها أمام الثوب الذى كان يتألق ويسطع تحت أشعة الشمس ، متموجاً من خلالها ، سابحاً فيها ، أشبه بقارب صغير من ذهب ، يرمز إلى النجاة ، ويتجه فى هدوء نحو شاطئ الأمن والخير والسلام .

وارتفعت غمغمة كبيرة تعالى بعدها الهتاف :

ـــ المجد لبالاس أتينا ! . . .

فارتعشت يد هستيا وهى تحمل طرف الثوب المقدس ، وضمت شفتيها خشية أن تبكى من فرط التأثر ، واستطردت السير وئيدة الخطى ، صافية العينين ، مشرقة الوجه ، ممشوقة القد ، لينة الأعضاء ، تكلؤها عين الفيلسوف أستاذها ، ويرمقها أوريون الدميم بنظرات ملؤها الحسرة ، وتنهب حسنها الباهر أبصار الجماهير .

ومر الأشراف والنبلاء وكبار رجال الحكومة ، وتبعتهم فرق الموسيقى وجماعة الشعراء والأدباء ورجال الفن ، يحيطون بالمغنية « ميرا » وقد ارتدت ثوباً أبيض ناصعاً محلى بزهرات حمراء ، وأرخت شعرها الأسود الرائع على كتفيها ، وتمنطقت بحزام من فضة . فما إن عرفتها الجماهير حتى صاحت :

ـــ ميرا . . . ميرا . . .

فابتسمت المغنية ، ولوحت للهاتفين بذراعها ، كأنما هى تعدهم بسماع ما لم يسمعوا فى حياتهم من أشجى التراتيل وأحرها وأقدسها .

وجعل الموكب يختفى ويغيب فى جوف المعبد على مهل . ثم تدفقت فى أثره الجماهير متسابقة متدافعة ، ثم هدأت الساحة بعض الشىء ، وتخلف فيها ذلك النفر من الشباب الأثرياء فى صحبة بنات الهوى اللاتى جلسن على الأرض ، ومضين يجاذبن أصدقاءهن الحديث ، ويداعبنهم ،

ويمرحن ويضحكن فى انتظار نهاية الصلاة وبدء أفراح الشعب .
وكان آخر من دخل المعبد هو عاشق هستيا التعس المسكين ، أوريون الدميم المعذب المنبوذ الذى لم تستطع أن تطيل النظر إليه عين ، والذى لم يكن له بين كل هذه الجموع صديق .

* * *

واخترق أوريون الجماهير وتسلل بين أعمدة المعبد ، حتى وقع اختياره على زاوية يمكن أن يلمح منها الآونة بعد الأخرى وجه حبيبته هستيا . وكان الكاهن الأعظم قد بدأ يتلو صلاته وهو جالس على أريكة عالية مجاورة لقاعدة تمثال الإلهة ، يشخص إليها البصر ، موفور التقى ، مشبوب الفكر والقلب والروح . أما الكاهن الأول هرمس فكان قد اقترب من التمثال المقدس وحوله صغار الكهنة يبتهلون ويرنمون ، وشرع ينزع فى بطء وحرص عن الإلهة ثوبها القديم ، ويتناول الثوب الجديد من أيدى العذارى ويخلعه على التمثال .

وظل الكهنة يرتلون والشعب صامت ثم انحنوا فجأة وتراجعوا كأنهم يقدمون الإلهة هبة للجماهير .

ولاحت إذ ذاك « بالاس أتينا » تتلألأ فى ثوبها الجديد الرائع ، مستوية على قاعدة تمثالها ، عزيزة ومرهوبة ، تعلو رأسها خوذة يزينها رسم أبى الهول ، ويحمى صدرها درع نقشت عليها صور بعض الأفاعى ، وتقبض يدها اليسرى على رمح أسند إلى درع ، وتحمل يدها اليمنى شارة النصر المجنح .

وعندئذ جاشت الجماهير واصطخبت . فارتفعت الأذرع مرتعشة ، وامتدت الأكف نحو الإلهة متضرعة ومبتهلة ، وفتح الكاهن الأعظم باب الحجرات الشرقية حيث تراكمت القرابين والنذور التى قدمها الشعب بالأمس . فضج الناس بالفرح ، واتقدت حماستهم وجعلوا يرددون :

ـــ المجد لبالاس أتينا ! . . .

وقبل أن تفتر حميتهم ، توسطت المغنية ميرا بهو المعبد ، ثم تقدمت صوب الهيكل و وقفت تجاه تمثال الإلهة . ثم جثت ، ثم نهضت ، ثم رفعت ذراعها وأنشأت ترتل بصوتها الحار الجميل وهى شاخصة إلى عينى الإلهة ، والجمهور يتبعها النظر ، وقد خفتت صيحاته ، وحل محلها سكون خاشع رهيب .

وغنت ميرا تمتدح بالاس وتمجدها :

« الحكمة شعارك يا بالاس والعقل قوتك » .

« الفصاحة لسانك والفنون زينتك » .

« الرقى إيمانك والحضارة قبلتك » .

« فامنحينا النور يا عذراء الخلود وقوى قلوبنا ! »

فرددت الجماهير فى حماسة :

ـــ امنحينا النور ! . . .

وجلجل صوت ميرا واستطردت :

« يا بعيدة النظرة يا سيدة الروية » .

« يا بنت العلى وحارسة المدنية »

« يا ذات العيون الصارمة والنفس الأبية »

« يا درع الوطن ، يا عذراء ، أنقذينا ، وامنحينا نعمة الخلاص والحرية ! . . . »

فرددت الجماهير فى جنون :

ـــ امنحينا نعمة الخلاص والحرية ! . . .

وحلّق صوت ميرا ودوّى كالرعد القاصف :

« يا راعية الأبطال يا عاقلة » .

« يا ربة الحكمة والشجاعة يا باسلة . »
« يا عبقرية السيف والقلب والفكر . »
« يا روح الكفاح ومجد هذا العصر . »
« امنحينا الثبات يا عذراء . »
« وجودى علينا بالنصر ! . . . »
فماجت الجماهير وانشقت حناجرها وهى تصرخ :
— جودى علينا بالنصر !

ثم صمتت ميرا ، وانحنت تقبل قدمى الإلهة ، ثم تراجعت فتلقاها الشعراء والفنانون وأحاطوا بها وجعلوا يلثمون أطراف ردائها ، بينما كانت الموسيقى تعزف ، والجماهير تهلل ، والعذارى ينثرن الورود على الإلهة فتتساقط كالنجوم وتنحدر على قاعدة التمثال حيث كان يزدحم المصلون ويتبارون فى أيهم يفوز بوردة منها .

وبعد أن أتم الكهنة الشعائر الدينية وتحولوا فى اتجاه رئيسهم الأعظم وانحنوا لتحيته ، اصطفت الفتيات فى نصف دائرة تجاه الهيكل ، ووقف هرمس على الدرجة الثانية لقاعدة التمثال ، ثم طوى ذراعيه على صدره وقال :

— يا أطهر وأنقى عذارى اليونان . تعلمن أن الكاهن الأعظم لم يعهد إليكن بحياكة ثوب الإلهة العذراء بالاس إلا ليكون الاقتداء بفضائلها رائدكن منذ الساعة ، وحتى بعد أن تغادرن بيوت آبائكن إلى دور أزواجكن. فلتتقدم إذن كل واحدة منكن ولتقسم أمام الإلهة أنها ستحتفظ بنفسها طاهرة من كل خيانة وكل نميمة وكل رذيلة وكل دنس . واعلمن أن من تحنث بيمينها لا بد أن تحق عليها لعنة الإلهة بالاس ! . . .

فرفعن جميعاً أبصارهن نحو الإلهة ومددن أذرعهن وقلن فى صوت واحد :

— نقسم أن نقتدى بالإلهة بالاس !

فاستدار هرمس نحوها وتمتم بعض الصلوات ، ثم تحوّل وبارك العذارى . فانحنين لتحيته بعد أن قبلن قدمى الإلهة ، ثم انصرفن متئدات ساكنات ، وقد امتلأت قلوبهن راحة وصفاء وقوة .

وبدأ المصلون يمرون بالتمثال وهم يلمسونه ويقبلون أناملهم متبركين . ثم اندفعت جموعهم نحو الخارج ، وفترت حركتهم فى المعبد ، وشرع الكاهن الأول هرمس يتلو صلاة الشكر الطويلة الجامعة وهو جاث تجاه التمثال ، والكاهن الأعظم يردد عن بعد نفس الصلاة ، ويتهيأ لنحر الذبائح التى قدمها المؤمنون قرابين للإلهة بالاس .

وكان قد خطر لستيا أن تتخلف ريثما يفرغ والدها من صلاته فيعودا إلى البيت معاً . ولكنها ذكرت أن الفيلسوف أستاذها لابد أن يكون فى انتظارها خارج المعبد ، وأن من واجبها ألا تدعه ينتظر . فاتجهت نحو الباب . غير أنها لم تكن تتوسط الرحبة الكبيرة المؤدية إلى الخارج ، حتى جمدت فى مكانها ، ثم ابتسمت ، واستضاء وجهها كأنما قد صب عليه فجأة سيل من نور . . . أبصرت خلف أحد أعمدة المعبد حبيبها وخطيبها كرونوس ، رئيس فرقة الفرسان فى الجيش الوطنى المقاتل ، يشير إليها بالصمت ، ويدعوها إلى الدنو منه . فتقدمت وهى ترتعد . فجذبها الشاب من يدها ، وسار بها إلى أقصى المعبد حيث ينهض عمود ضخم أخفاهما عن الأبصار . وهناك ضمها فى حنان إلى صدره ، فأقصته عنها فى رفق وغمغمت :

— كيف جئت ؟ . . . إنها لمعجزة ! . . . أأنت فى إجازة ؟ . . . وهل . . . هل نحن منتصرون ؟ . . .

فحاول الشاب أن يجيب . ولكنها تأبطت ذراعه وآثرت أن تخرج به من المعبد . فردها بحركة وقال فى همس :

ـ أستاذك وأوريون ينتظران بالباب ، ولا أريد أن ألتقى بهما قبل أن أتحدث إليك . . . إليك وحدك . . . الآن . . . لدينا متسع من الوقت . . . البثى مكانك . . . لا تتحركى . . . اصغى إلىّ . . .

وكان شاباً وضىء الطلعة ، سبط القوام ، مدمج الأعضاء ، بادى عظام الوجه فى رجولة أخاذة . وكان يتكلم وهو يرتجف ، ويعض شفته الدقيقة السفلى ، ولا يفتأ يرشق هستيا بنظرات حادة متقطعة وجلة ، كأنما هو يخشى التحديق إليها مواجهة .

وكانت هى تتطلع إليه وقلبها يخفق ، ونظراتها تحوم حول ملامح وجهه وتقتنص من حركاتها ما يمكن أن يميط لها اللثام عن دخيلة نفسه . وقالت بعد فترة :

ـ أنت مضطرب . . . لم أرك أبداً على هذه الصورة . . . ماذا ؟ . . هل بدأت المعركة الثانية ؟ . . . وهل هزم جيشنا ؟ . . . تكلم . . . أسرع . . .

فقال الشاب وهو يلتقط أنفاسه :

ـ لن نهزم فى ساحة القتال أبداً . ولكننا قد نهزم هنا . . . فى الداخل . . . وهذه الهزيمة المروعة قد تقضى على جيشنا شر قضاء ! . . .

فتمتمت هستيا :

ـ لا أفهمك . . .

فاستطرد وهو يختلج :

ـ ما إن ظفرت بأجازة يومين ، ومنيت نفسى برؤيتك ، حتى امتطيت صهوة جوادى وأسرعت ودخلت المدينة متجهاً نحو بيتك . ولكنى لم أكد أشرف على بابه حتى رأيت الشاعر أكتيون خارجاً منه . . . من بيتك أنت . . . خارجاً فى صحبة نفر من أصدقائه يتقدمهم رئيس

الشرطة . فاستغربت أمرهم ، ولم أفهم لماذا اجتمعوا اليوم فى دارك ، وتراجعت. ولكن أكتيون أبصرنى فودع رئيس الشرطة ، ثم نادانى واندفع نحوى وعانقنى . ثم استفسرنى عن حقيقة موقف الجيش فى ميدان القتال وهو يبتسم ابتسامة غامضة أدهشتنى وأرابتنى . وفجأة ، مال إلىّ ، وربت على كتفى ، وقال لى بالحرف الواحد :

« من الخير لك أن تظل فى أثينا ، وأن تنضم إلى صفوفنا ، وأن تعدل عن العودة إلى ميدان القتال ، لأن البلد أصبح فى أيدينا . وقد اعتزمنا نحن أن تعقد الصلح مع الفرس ، وأن نشعل نار الثورة فى الداخل كى نضع حداً لحرب الاستقلال الطائشة ، ونعرقل جهود القائد ملتيادس ، ونقيم الكاهن الأعظم صديق الفرس ملكاً علينا ! . . . »

هذا ما قاله لى الشاعر أكتيون . فبهت أنا ولم أصدق . وعندئذ أبرز لى الشاعر منشوراً يدعو إلى الثورة ووقف القتال ، موقعاً عليه بخاتمه هو ، وخاتم الكاهن الأعظم ، وخاتم رئيس الشرطة ، وخاتم شقيقى الأكبر « بلوتون » حارس صوامع الذخيرة فى أثينا ، وخاتم رجل آخر تعرفينه أنت حق المعرفة يا هستيا . . .

فاندفق الدم إلى وجه الفتاة ، وانخلع قلبها وهتفت :

— من ؟ . . . من هو ؟ . . .

فأومأ الشاب بأصبعه إلى الهيكل وقال :

— هو ذلك الرجل الذى يصلى ! ... هو والدك ... هو الكاهن الأول فى معبد بالاس ، وهو الذى عقد المتآمرون اجتماعهم صباح اليوم فى بيته ! . . .

فجحظت عينا الفتاة ، وعقد الحول لسانها . أما كرونوس فاستطرد يقول :

– تصورى مبلغ دهشتى ورعبى عندما تأكدت أن الكاهن الأعظم وأكتيون الشهير والدك النبيل ورئيس الشرطة نفسه وشقيقى الأكبر بلوتون ، أى صفوة رجال هذه الأمة ، هم جميعاً من الثوار دعاة الهزيمة وأنصار الفرس وأعداء جيشنا الذى يقاتل قتال المستميت ذوداً عن كرامتنا وحريتنا واستقلالنا ! . . . جن جنونى ، ولم أفكر فى تلك اللحظة إلا فى أخى . . . فى شقيقى . . . فى ذلك الرجل الذى ربانى بعد وفاة والدى ، والذى لا أحب بعدك فى هذه الدنيا إنساناً سواه . فلم أتردد ، وقفلت راجعاً إلى بيتنا ، والتقيت بأخى ، وما زلت به أنبهه وأحذره وأبصره بالخطر الذى لابد أن يستهدف له لو فشلت الثورة ، حتى اقتنع برأيى ، ونزل على حكمى ، وكتب أمامى إلى الشاعر أكتيون بأنه قد عدل بصفة نهائية عن تأييد المتآمرين . فتنفست أنا الصعداء . ولكنى لم أهدأ حتى عثرت على ملجأ أمين نصحت شقيقى بأن يختبئ فيه خشية أن ينقم عليه أكتيون فيبعث بمن يقتله . ولما اطمأن قلبى على أخى ، عدت فامتطيت جوادى وأسرعت إلى هنا أحمل إليك النبأ المنكر المشؤوم . . . فخذى . . . اقرأى أنت أيضاً وتأكدى . . . هذا هو المنشور وهو يدل أبلغ الدلالة على صدق كلامى!

وصمت وهو يلهث . فتعاقبت أنفاس الفتاة ، وأحست كأن هوة عميقة تحتفر عند قدميها ، وكأن دواراً عنيفاً يطوح بها . ذكرت تلك العبارات الغريبة النابية التى صدرت اليوم فى البيت عن والدها . ذكرتها كلمة كلمة . ذكرتها وقلبها يتمزق سخطاً وكبراً وأنفة . وذكرت موقف أستاذها ، وثورتها هى على أبيها ، وإشادتها بوطنية صديقهم أوريون المشوه الدميم . . . فشعرت بالعار يغمرها ، ولم تستطع أن تتصور كيف يكون والدها الكاهن الأول ثم يخون ، وكيف تكون هى بنت هذا الكاهن ثم تغض الطرف عن الخيانة ، وتسمح بالنفاق يتستر خلف شعائر الدين ، وتحنث فوق ذلك باليمين الكبرى ، يمين النزاهة والاستقامة التى أقسمتها

الساعة أمام الإلهة بالاس !

وحانت منها التفاتة إلى داخل المعبد ، فلمحت والدها ينهض ثم يسجد ، ثم يمعن فى صلواته . فتصاعدت من صدرها موجة اشمئزاز أخذت بمخنقها ، وزايلتها رقة العذارى ، وانبثقت فى نفسها المرأة الصارمة القاسية التى كانت تعترض اليوم والدها وتحاسبه على انحرافه ومروقه حساباً عسيراً . فقالت وقد تقطب جبينها واتقدت عيناها :

ـ اصغ إلىّ يا كرونوس . أنت تعلم بالطبع أن ملك الفرس داريوس عندما أنزل جيوشه فى سهل ماراتون هاجم قلب جيشنا فتغلب عليه فى المعركة الأولى . ولكنى سمعت والدى يقول بالأمس للكاهن الأعظم أن هذه خطة دبرها قائدنا العبقرى ملتيادس ، وأنه تعمد إضعاف قلب جيشنا وتقوية جناحيه كى يستدرج العدو إلى وسط السهل الفسيح ، ثم يطبق عليه بجناحيه القويين ، ويمعن فى الطعن فيه حتى يلقى به فى البحر . وإذن فهزيمة الملك داريوس فى المعركة الثانية محتومة . لهذا ولاشك رأى المتآمرون أن يسرعوا بإشعال نار الثورة كى يضطر قائدنا إلى نقل جزء من جيوشه إلى الداخل ، فيحارب فى ميدانين ، فيتخبط ، فيهزمه الفرس ويدخلوا بلادنا ، ويجعلوا من المتآمرين بين عشية وضحاها سادة وحكاماً علينا ! . . . فالمعركة الثانية الفاصلة قد تبدأ غداً إذن أو بعد غد . فإذا بقى المتآمرون أحياء ، ماتت اليونان ، وضاع استقلالها إلى الأبد . فيجب ، يجب القضاء على المتآمرين يا كرونوس . . .

وأبرقت عيناها بريقاً ثابتاً حاقداً وأردفت :

ـ يجب سحقهم جميعاً والتخلص منهم ، كى يدب الذعر فى صفوف أنصارهم ، فيعجزوا عن إشاعة الفوضى فى الداخل ، ويقبعوا فى جحورهم مكرهين ، ريثما تتم المعركة الثانية ويتحقق لجيشنا النصر ! . . . إن حاكم المدينة لن يجسر على اعتقال الرؤوس والزعماء وهم أعظم وأقوى

الشخصيات فى أثينا . بل هر لو اعتقلهم فستندلع نار الثورة بفعل أنصارهم وتلك هى الغاية التى يسعون إليها . و إذن فواجبنا نحن ، نحن الشعب ، أن نعمل . . . واجبنا نحن الشعب أن نحاسب ونعاقب ونضرب ! . . .

فحدق إليها كرونوس مرتجفاً وقال :

ـ صرحى عما فى ضميرك . . .

فقالت بصوت قاطع :

ـ إن أستاذى الفيلسوف شالكاس وطنى صميم ، وله فى البلاد أتباع ومريدون ، فإليه سأتوجه حال انصرافى من هنا ، وهو الكفيل بالقضاء على الكاهن الأعظم و رئيس الشرطة والشاعر أكتيون . . . أما أنت ، أنت يا كرونوس ، أنت يا حبيبى ، فواجبك أمامك ، وهو على ملتقى العزم منك . . . فكن شجاعاً ولا تتردد . ومتى اختفى الآن الكاهن الأعظم وشرع فى نحر الذبائح ، فتقدم أنت ، تقدم واطعن الكاهن الأول وهو يصلى ! . . .

فتراجع كرونوس مذهولاً وغمغم :

ـ ماذا تقولين ؟ . . .

فصرخت هستيا :

ـ لا تفكر فى أنه والدى ! . . . لم يعد لى والد ! . . . كنت يتيمة الأم فأصبحت يتيمة الأب . ولست منذ الساعة إلا بنت الإلهة بالاس ! . . لقد أقسمت أن أقتدى بها . ولن أحنث بيمينى ! . . . فلا تفكر فى كامرأة لها عواطف بنوية مقدسة . اطرد هذه المرأة من ذهنك . أقصها عن خيالك . اقتلنى فى قلبك إلى حين . لتستطيع أن تقتل المجرم وأنت ثابت مطمئن !

فارتعد الشاب من فرعه إلى قدمه وقال :

ـ هستيا . . . هستيا . . . كيف تطلبين إلى أن أرتكب جرماً كهذا ! ؟ . . كيف يمكن لرجل يحبك أصدق الحب أن يسعى لإشقائك وهو لا يتمنى

على القدر إلا أن يجعل منك أسعد امرأة ؟ . . . لا . . . لا أستطيع . . .
هذا ليس فى طاقة مخلوق ! . . . إن وطنيتك تحرضنى اليوم على قتل
والدك . ولكن عاطفة البنوة لا بد أن تثور فى نفسك غداً ، وتعدنى مسئولاً
عما ارتكبت يداى ! . . أنت فى حماستك لا تفكرين فى المستقبل . ولكن
المستقبل هو كل ما نملك . . . وأنا أراه . . . أراه فى هذه الساعة وألمسه
وأعيش فيه ... أجل . أعيش فيه وأعلم علم اليقين أنه سيكون الظلام ...
سيكون الهلاك . . . سيكون مقبرة حبنا العظيم ! . . . آه يا هستيا . . .
أنى لو طعنت والدك فالطعنة سترتد إلى صدرى وتمزقنى وتمزقك أنت أيضاً
يا حبيبتى . . . لن تموت الجثة بيننا أبداً ! . . لن يموت والدك فى قلبك
بل أنا الذى سيموت ! . سأكون ذعراً لك . سأكون موضع حقدك و بغضك
ونقمتك مدى الحياة . فثوبى إلى رشدك واشفقى على نفسك وعلىّ . . .

فقالت فى مجالدة وعناد :

ـــ سأقترن بك ، وسيزداد حبى لك كلما ذكرت أنك أنكرت حبك
وقمت بواجبك ! . . . .

فضمها إلى صدره فى عنف ، وصاح بها يصب الكلمات فى مسمعها
صباً كأنما هو يريد أن يحرك فيها عوامل الأنانية التى تملأ قلوب العشاق :

ـــ أنت شابة ، ومن حقك أن تعيشى وتسعدى . . . وما من قوة فى
الأرض تستطيع أن تطلب من امرأة أكثر مما يمكن أن تعطى . . . ليس
فى وسعك يا هستيا ولا من حقك أن تضحى فى سبيل الوطن برجل أنت
نفسك مدينة له بالحياة ! . . . على أن للوطن رجاله ، وأنا على ثقة بأنهم
سينقذونه ... وحتى لو نشبت الثورة فهى لن تؤثر فى نتيجة المعركة الفاصلة ...

فقالت الفتاة وقد اشتد فى صوتها لهب الغضب والاستنكار :

ـــ ما أدراك . . . وكيف تستحل تقدير الأمور وفق هواك ؟ . . .

ألست تحبنى ؟ . . . إذن فاصدع بأمرى وقم بواجبك ولا تبك على والدى أكثر منى ! . . .

فتشبث بها ، وقال :

ـ إنما أبكى عليك وعلىّ ! . . . محال . . . لن تخدعنى حماستك الطارئة . . . لن أنزلق . لن أطيعك . لن أشقيك . . . لن أجلب على نفسى بغضك الناقم الأبدى ! . . .

وألصق خده بخدها ، وجعل يميل بها كأنه يهدهدها ، وأردف :

ـ الحياة أمامنا ياحبيبتى فلماذا نضيعها ؟ . . . السعادة بين أيدينا فلماذا نفقدها ؟.. الحب يدعونا يا هستيا فلنلب النداء ! . . لنذهب ... لنتركهم . . . لنفر إلى الخارج . . . اليوم . . . بل الليلة . . . لقد أعددت عدتى . . . معى نقود ولى فى الخارج أصدقاء . فاستمعى لنصحى قبل فوات الوقت ، واعلمى أنى أحبك أضعاف ما تحبيننى ، وأنى أرتضى الفرار من الجيش فى سبيل حبك وإنقاذ والدك !

فحملقت فيه مبهوتة وغير مصدقة ، وتأملته . . . أهذا هو الرجل الذى عقدت عليه كل آمالها ؟ . . . أهذا هو الفارس البطل الذى آمنت بشرفه إيمانها بحياتها ؟ . . . يريد أن يأخذ ولا يعطى . يريد أن يتمتع ويتنصل . يريد أن يحب ويسعد ولكن بعد أن يفر ويخون ؟ ! . . .

وظلت تتأمله وأنفاسها اللاهثة تتعاقب ، وبدنها المحموم يرتعش ، وعينها الصارمة ترقبه وتبحث فيه ولو عن لمحة واحدة من الرجل الذى كان منذ لحظة أمير أحلامها .

ولم يكد يصمت حتى كان صمته الزاخر بالخزى والعار قد باعد بينه وبينها . فتأملته ثانية واحتقرته . احتقرته برغم حبها الشديد له . احتقرته ولكنها لم تيأس مع ذلك منه . لم تيأس من تبديل عزمه وإيقاظ ضميره

وإلهاب وطنيته ودفعه إلى تأدية واجبه والعودة إلى ميدان القتال . فقالت له وهى تكذب لأول مرة فى حياتها ، وتجاهد ما استطاعت لتخفى عواطفها وأفكارها ، وتلاحق بعينيها الحاقدة الرجل الخائن الذى يصلى والذى شاء القدر أن يكون هو والدها :

ــ ما أشد حبك لى يا كرونوس . . . ليس فى مقدورى أن أجيبك الآن إلى سؤلك . . . أريد أن أتحدث إليك على انفراد . . . تقدمنى إلى بيتى وانتظرنى هناك . . . يجب أن أصلى أيضاً وأستوحى الإلهة . ومتى أتممت صلاتى أسرعت إليك بمفردى لأن والدى قد دعى لتناول طعام الغداء على مائدة الكاهن الأعظم وكذلك أستاذى وصديقنا أوريون . . . فاذهب ، اذهب إلى بيتى حالاً وانتظرنى . . .

فأشرق وجه الشاب وخيل إليه أنه سيتغلب عليها ويقنعها . فاحتقرته أيضاً لسذاجته وهى تحس برغم احتقارها أنها ما تزال تحبه بل تعشقه . ولكنه لم يفهمها . لم يستشعر العواطف الثائرة التى كان يجيش بها صدرها . فأراد أن يعانقها . فلم تتمنع وعانقته . فزهاه الفرح وأعماه ، وأراد أن يقبلها أيضاً . ولكنها ردته عنها فى رفق فأطاع . ثم انصرف مسرعاً وهى تشيعه بنظرة ثابتة ملؤها الألم والحزن والحسرة .

* * *

وكان الكاهن الأعظم قد انطلق فى صحبة صغار الكهنة إلى الرحبة المجاورة للهيكل والمعدة لنحر الذبائح . فأجالت هستيا الطرف حولها . فلم تبصر غير والدها جاثياً عند قدمى تمثال الإلهة ، مستغرقاً فى تلاوة صلاة الشكر الجامعة . فاستغربت منه كيف يستطيع أن يصلى وفى نفسه إرادة الخيانة والغدر . وأهاجها ما كان يبدو عليه من خشوع صادق واطمئنان عجيب . فازداد سخطها لنفاقه وقدرته الخارقة على المداراة والتمويه . وفى

مثل لمح الطرف تصورت نشوب الثورة ، وهزيمة الجيش ، ودخول الفرس بلادها غزاة فاتحين . فضممت شفتيها فى بغض وحنق ، وهالها أن يقع كل هذا بفعل رجل هو والدها ، كما هالها ما ينتظرها على يده من عار لم تكن لتتصور لحظة أن شبهة منه قد تلحق بها . فلبثت واقفة تنظر إلى الرجل وترتجف . . .

وتغلغل سكون المعبد فى أطواء نفسها ، وأسلمها بجمع عواطفها إلى الفكرة المستبدة التى ملكتها . فابتهجت بوحدتها ، وأحست الأمن يغريها ويدفعها ، ويوسوس لها ألا تضيع هذه الفرصة الفريدة التى حباها القدر بها

وتقدمت بضع خطوات وهى لا تدرى على وجه التحقيق ماذا يجب عليها أن تفعل . وإذ ذاك وقع بصرها على تمثال الإلهة . فتفرست فيه ، ولبثت فترة شاخصة إليه ، تبتهل وتتضرع وتلتمس أن يهبط الوحى عليها .

وغابت عن صوابها لحظات ، وشعرت كأنها تتحلل من كل ثر جثمانى ، وكأن روحها تندمج فى روح الإلهة وتفنى فيها . فعاودت التضرع والابتهال ثم دبت فيها الحياة فجأة . فتألقت عيناها ، وتحرك بدنها على دهش منها ، ومشت كما يمشى النائم ، متجهة صوب حجرة النذور ، تدفعها وتحرسها قوة مجهولة لا قبل لها بمقاومتها .

وجعلت تنقل بصرها فى أنحاء الحجرة ، ونداء الإلهة يتبعها ، وصداه يرن فى أذنها ، ويفعم قلبها إيماناً وحرارة وعزماً .

وكانت الحجرة مليئة بقلائد ذهبية وأساور وأقراط وأهلة من فضة وذهب ، وسيوف وخناجر مرصعة المقابض بالأحجار الكريمة ، وكلها نذور جمعت فى هذا المكان وقدمها الشعب اعترافاً بفضل الإلهة وتمجيداً لمعجزاتها . فرفعت هستيا ذراعها واختطفت أحد الخناجر ، ثم مرقت من

الحجرة وتوقفت لحظة وأصغت . فدوّت حولها صرخات الذبائح منبعثة من الرحبة المجاورة . فأيقنت أن الكاهن الأعظم ما يزال هناك . فاطمأنت ومشت مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطى ، مدفوعة بنفس القوة ونفس العزم ونفس الإيمان .

ولما دنت من الهيكل ، خلعت نعليها ، وسارت على أطراف قدميها ، وهي ما تفتأ تحدق إلى حركات والدها وترقبها . وعندما ألفته أمامها جاثياً يصلي ، محني الرأس ، محدودب الظهر ، بارز العنق ، أغراها سكونه وعجزه ، فحبست أنفاسها جهدها ، وأهابت بعزمها الحاقد ، ورفعت ذراعها والخنجر مشهر في يدها . . . وفي تلك اللحظة . . . وقبل أن تتئد هستيا وتفكر وتتخير المقتل الذي يجب أن تصوّب إليه طعنتها ، كان الكاهن الأعظم قد لمحها وهو في رحبة الذبائح . فقفز إليها صارخاً . فأجفلت الفتاة وطعنت . ولكنها لم تستطع أن تصيب والدها إلا في كتفه . فأطبق عليها الكاهن الأعظم ، وانتزع الخنجر من يدها . ثم أسرع وأوصد باب الرحبة ، وكر راجعاً إلى الفتاة وهو يصرخ ثائراً مستهولاً :

ــ أنت ؟ . . . أنت يا هستيا ، تريدين قتل والدك ؟ . . .

فصاحت الفتاة :

ــ لقد خان عهده لوطنه . وأنت ، أنت أيضاً خنت ، وكذلك رئيس الشرطة وصفوة الوجوه والأعيان في هذا البلد . كلكم وصوليون ، كلكم نفعيون وطلاب مصالح . الدم الحر في الصفوة المختارة من رجال اليونان قد نضب ، والعصارة الطاهرة في قلوبهم قد جفت . فكيف نصبر نحن الشعب عليكم ، وكيف لا نحاول التخلص منكم قبل أن توردوا الوطن مورد الهلاك ؟ . . . انظر . . . انظر إلى هذا المنشور الذي دسه في يدي أحد المصلين . . . أليس هو من صنع أيديكم ؟ . . . أليست هذه أختامكم ؟ . . . ألستم أنتم الذين تحرضون الشعب على الجيش وزعيمه

وتطلبون عقد الصلح مع العدو ولو استحال أبناء اليونان إلى رهط ممزق من السائمة والعبيد ؟ . . . اقرأ . . . واحجب وجهك عنى ، فقد كنت أنت خليقاً بطعنة أبلغ وأعمق من تلك التى أردت أنا أن أسددها إلى عنق والدى ! . . .

واستردت أنفاسها وهمت بأن تتحول نحو أبيها الذى كان يبتسم ابتسامته الغامضة والدم ينزف منه . ولكن الكاهن الأعظم أسرع وغمس منديله فى حوض الماء المقدس المجاور لتمثال الإلهة ، ثم ضمد جرح الكاهن الأول ، ثم ارتمى على هستيا ، وأمسك بها ، وطفق يهزها هزاً عنيفاً ويقول :

ــ أيتها الفتاة الطائشة ، أيتها الفتاة الغريرة ، كان عليك أن تستفسرى قبل أن تتهورى . كان عليك أن تتثبتى قبل أن تضربى . إن والدك يا هستيا أشرف وأطهر إنسان . أما أنا ، أنا حارس معبد الإلهة بالاس والكاهن الأعظم فى هيكلها المقدس ، فتقطيع بدنى إرباً ، أو حرقى بالنار ، أو موتى على خشب التعذيب ، أحب إلىّ من خيانة وطنى ولو وعدت بملك الدنيا ! . . . نحن الذين أردنا ذلك . . . نحن الذين دبرنا المكيدة . . . والدك وأنا ورئيس الشرطة حالفنا المتآمرين عن عمد ، وشاركناهم فى توقيع منشور الخيانة ، وأردنا أن نكون عيوناً للوطن عليهم ، وجواسيس للزعيم عندهم ، كى نكشف عن خططهم ونحبطها وننقذ الجيش والزعيم فى معركة الاستقلال الفاصلة ! . . . وإذا كنت فى شك من ذلك فانظرى . . . تعالى وانظرى . . . اقتربى . . . هذا هو البرهان . . . هذا ما أمر به والدك اليوم بعد أن اجتمع فى بيته بالمتآمرين ، وهذا ما نفذه على الفور رئيس الشرطة . انظرى واسمعى . . .

واتجه الكاهن الأعظم إلى أحد الأبواب الجانبية وفتحها . فأبصرت هستيا شبه غمامة كثيفة ، ثم رأت الغمامة تقترب ، ثم أبصرت ضبابها

يتمزق ويسفر عن جماهير غفيرة تدفقت نحو ساحة الهيكل الخارجية ، وطفقت تلوح بأذرعها ، وتهدد بقبضاتها ، وتهتف :

ـ الموت لأكتيون ! . . . نريد رأس أكتيون ! . . . الموت للخونة ! .

وأوصد الكاهن الأعظم الباب ، وتحول إلى الفتاة وقال :

ـ لقد أخذناهم فى الفخ نفسه الذى نصبوه لنا . ألقينا القبض عليهم جميعاً ، ما خلا اثنين . . . اثنين فقط . . . اثنين من أخبثهم وأخطرهم . أمهلنا الأول فترة كى نطمئنه ونستدرجه ، ونعرف منه المكان الذى لجأ إليه الثانى فنباغته وهو فى جحره ، ثم نقتص من الرجلين معاً . . .

فجحظت عينا هستيا دهشة مما رأت ونشوة بما سمعت وذعراً لما أقدمت عليه . فارتمت عند قدمى والدها وصاحت :

ـ غفرانك يا أبت الطاهر العظيم . . . اقتلنى . . . إنى لأستحق الموت من يدك جزاء وفاقاً على تهورى وطيشى .

فهتف الوالد المطعون :

ـ بل تستحقين الحياة . . . العاطفة تصبح ألزم للوطن من العقل ، عندما يكون الوطن بين الموت والحياة ... لقد كنت مؤمنة بخيانتى ، وكانت القرينة واضحة ضدى ، فكان لزاماً عليك أن تنكرى البنوة وتفكرى فى الواجب . إنى لفخور بك يا هستيا . ولكنى أتمنى أن تعودى فتغمدى خنجرك حقاً فى عنقى لو رأيتك ناكصة على أعقابك ، ومتهاونة ولو لحظة فى تأدية واجب وطنى آخر أقسى وأفجع من قتلى ! . . .

فتفرست فيه الفتاة وقالت :

ـ لا أفهمك . . . مرنى بما تريد . حياتى فداء للوطن ولك .

فلم يتكلم الوالد . بل انحنى الكاهن الأعظم على الفتاة وصاح :

ـ جاءنى رسول من قبل قائدنا وزعيمنا ملتيادس وأنبأنى أن خطيبك ،

حبيبك . . . كرونوس . . . رئيس فرقة الفرسان فى الجيش المقاتل ، فر من الجيش . . . أتفهمين ؟ . . . فر من الجيش حاملاً بعض مستندات وخرائط سرية خطيرة متعلقة بالخطة التى رسمها قائدنا لمعركة الاستقلال الحاسمة . . . فر من ساحة الحرب ، ثم هبط هذه المدينة ، ثم اتصل ولا ريب بشقيقه الخائن بلوتون حارس صوامع الغلال والذى كان منذ أيام عضواً عاملاً فى عصبة المتآمرين ثم تخلى عنهم ليضللنا . . . نعم . . . اتصل كرونوس بشقيقه . أسرع لإنقاذه قبل أن نقبض نحن عليه . واتفق كلاهما ولا شك على أن يغافلا حرس الحدود ، أو يرشوهم بالمال، ثم ينسلا من المدينة تحت جنح الظلام ، وينطلقا إلى معسكر الفرس فيسلما العدو أسرار جيشنا ! . . . هذا هو خطيبك يا هستيا ، وغد جبان ، مهتوك الشرف العسكرى وخائن ، بل هو شر علينا من أفتك الخونة والمتآمرين . ولقد أعيا رجالنا البحث عن شقيقه الذى اختفى . فأمرت أنا الشرطة بتعقبه هو وتفتيش بيته دون أن يقبضوا الآن عليه . ولكنهم بعد أن فتشوا منزله ، لم يوفقوا لا إلى العثور على المستندات الخطيرة التى سرقها ولا إلى معرفة المكمن الذى يختفى فيه شقيقه . . . واليوم . . . بل منذ لحظات أبصروه هو . . . كرونوس . . . يدخل بيتك أنت يا هستيا . . . فأسرع أحدهم منذ دقائق وأنهى إلى النبأ . فأمرتهم بأن يحاصروا بيتك عن بعد . وكنت على وشك أن أصارح بالأمر والدك كى يسرع فيلحق بك قبل أن تبلغى البيت ، تنفيذاً لخطة وضعتها أنا لتوى وألقيت عبء تنفيذها على عاتقك . . . فكرونوس ينتظرك الآن فى دارك ، ومن المحال أن تكون المستندات السرية معه . أنها ولا ريب فى حوزة أخيه . أما هو فأكبر الظن أنه لم يذهب إليك إلا ليقنعك بالفرار معه . فالواجب الذى أطالبك به اليوم يا هستيا ، واجبك العظيم . واجبك المقدس حقاً ، واجبك المرهون بتأديته انتصار جيشنا ، هو أن تتفوق على

نفسك ، وتتهرى حبك وقلبك ، وترحى بمقدم الشاب وتجرديه من سلاحه إن استطعت ، ثم تستدرجيه بالمكر والحيلة ووهم العاطفة والإغراء ، كي تعرفي أين يختبئ شقيقه الخائن بلوتون . إذ نحن لو قبضنا على كرونوس ، وحتى لو عذبناه ، فهو لن يعترف . لن يضحى أبداً بأخيه الذى يعتبره بمثابة والده . ولو تركناه طليقاً ثم راقبناه أيضاً ، فلابد أن يشعر بعد أن فشلت ثورة المتآمرين أنه هو وشقيقه فى خطر ، فيخدعنا عامداً ويضللنا ويسلك بنا سبلا ملتوية وزائفة كي يتيح لنفسه أو لأخيه فرصة الفرار من المدينة وحمل أسرارنا إلى معسكر الفرس . وإذن فنحن نريد أن نعرف المخبأ الذى يكمن فيه بلوتون ، نريد أن نعرفه من كرونوس نفسه وبمحض اختياره ، وإن كنا مع ذلك قد أمرنا رجالنا زيادة فى الحيطة والحذر بأن ينتشروا عند الحدود ويراقبوا كل مسافر متسلل . . . فالساعة فاصلة يا هستيا ، ومصير جيشنا فى يدك ، وأنت وحدك التى فى مقدورك أن تنتزعى السر من صدر كرونوس ، على أن توطنى نفسك يا ابنتى على التضحية بخطيبك وحبيبك لأنه هو أيضاً يجب أن يعاقب ، وهو أيضاً يجب أن يلقى مصير الخونة المتآمرين ! ...

فوجمت هستيا فترة ثم ذكرت ما قاله لها كرونوس واقشعر بدنها .

أدركت أنه كان يخاتل وينافق ويحتال عليها . أدركت أنه لم يحجم عن قتل والدها حباً فيها بل اعتقاداً منه أن والدها كان مثله مارقاً وخائناً . أدركت أنه لم يفكر فى ترك جيشه وبلاده من أجلها هى وحدها بل من أجل مصلحته أيضاً ، من أجل مطامعه ، من أجل منصب كبير كان يثق ولا ريب أنه سيظفر به من حكومة الخونة بعد أن يكون الجيش قد انهزم على يده ويد شقيقه . . . وإذن فهو قد أراد أن يظفر بكل شيء على أنقاض وطنه . المرأة والمنصب ، الجسد والمال ، شهوة البدن وشهوة الدنيا ! . . . نعم . هذا ما أراده كرونوس . هذا ما أراد أن تعاونه عليه

هستيا ، بل هذا ما كان يسترة خلف قناع الحب كي تنخدع به الفتاة الساذجة وتنساق إليه .

وارتعدت فرائصها ، وغشيتها موجة طاغية من الحنق والكره والحقد . كانت عندما صرفت حبيبها من المعبد لم تزل تحبه ، ولم تزل مبقية عليه ، برغم ثورتها على ضعفه واحتقارها له . كانت تريد أن تخلو به في بيتها كي توقظ ضميره ، وتستنهض كرامته ، وتلهب وطنيته ، وترده إلى ساحة القتال مرفوعة الرأس به وهو ماض في تأدية واجبه . أما الآن وقد وضحت الخيانة المروعة ، ووضح الخبث المحكم ، والغرض المتأصل المكين ، فقد تحجر قلب هستيا ، وغاضت عواطفها ، ولم تعد باقية في عقلها الذى التهم كيانها غير فكرة ثابتة واحدة هي الثأر لبلادها ولو على أشلاء حبها التاعس وأملها المخيب المنكود .

ورأت من العبث أن تصارح بأنها قد التقت بكرونوس في المعبد منذ قليل . فاكتفت بأن نهضت واتجهت من فورها صوب تمثال الإلهة ، وجثت عند قاعدته ، ورفعت ذراعها وقالت :

— أقسم بالإلهة بالاس في يوم عيدها أن ألبي نداء كاهنها الأعظم ، وأنهض بالواجب المقدس المفروض على ! . .

فعانقها الكاهن الأعظم وباركها ، واحتضنها والدها وقبلها . فتأبطت ذراعه وخرجت به من المعبد ، ملتمعة العينين ، متقدة الوجنتين ، راسخة الخطى ، يرتسم على جبينها المقطب الصارم عزم امرأة فذة عجيبة ، تجردت من أنوثتها ، واستحالت إلى قوة مرهوبة للعدل والثأر والعقاب .

وكانت الجماهير ما تزال تهتف في الميدان المحيط بالمعبد وتطلب الموت للخونة المتآمرين . وكان الفيلسوف شالكاس واقفاً مع صديقه أوريون على مقعد كبير من حجر في طرف من أطراف الميدان ، وحولهما رهط من

الفنانين والأدباء وخادمات الهيكل ، يتبارون جميعاً فى إثارة روح الكفاح والصبر فى نفوس الجماهير بإلقاء الخطب الحماسية ، أو القصائد الوطنية ، أو الأناشيد التى تمجد القائد العظيم ملتيادس ، أو الأزجال التى تحقر وتهزئ الشاعر الخائن أكتيون ، وهى تستنزل لعنة الإلهة عليه وعلى صحبه المارقين . وكان أوريون الدميم يخطب هو أيضاً . وكانت حماسته الصادقة تخلع على وجهه المشوه حلة رائعة من جمال . ولكنه كان حزيناً ، لا يكاد يصمت حتى يفكر فى حظه ويفكر فى حبيبته ، فيتمنى لو انه لم يكن ضعيفاً عليلاً كى يسرع إلى ميدان القتال ويموت فيظفر بالنعمتين العظيمتين : تقدير الوطن وإعجاب هستيا .

وبرزت الفتاة على درج المعبد . فقفز قلب أوريون بين ضلوعه ، وخف إليها . فلوحت له ولأستاذها بأطراف أناملها . فأسرع شالكاس وحيا رفاقه واتجه نحوها . فناولته ذراعها اليسرى فتأبطها . ومشى الثلاثة وأوريون يتبع هستيا كظلها ، ويتنسم فى بهجة عبير وجودها ، محاذراً أن تقع عينها عليه فينقبض قلبها وتلوى بوجهها عنه .

ولم تتردد الفتاة وشرعت تقص على أستاذها كل شىء . كل ما أقدمت هى عليه ، وكل ما قاله الكاهن الأعظم وعهد إليها به ، دون أن تذكر لقاءها بكرونوس فى المعبد خشية أن يلومها الفيلسوف على ترفقها بحبيبها وأملها فى إيقاظ ضميره وإلهاب وطنيته بعد أن رأته يتبدل ويوشك أن ينحرف عن السبيل السوى .

وكان أوريون يسمع وهو يرتعش . أثلجت صدره خيانة غريمه وانحطاطه فى نظر الفتاة . ولكنه كبح ثورته على كرونوس ولم يتكلم حرصاً على كرامة هستيا . أما الفيلسوف فظل مصغياً للحديث فى هدوء المفكر المتأمل ، ثم تطلع إلى الفتاة وأبرقت عيناه وقال :

— هذه ساعة مجدك يا ابنتى . لن تكونى جديرة بالانتساب إلى أمتك

يا هستيا ، إذا أنت أحجمت ولو لحظة عن تأدية واجبك . فاحذرى وتنبهى . إنك مهما قلت أنك تبغضين الآن كرونوس ، فقلبك كان يحبه وروحك كانت أخت روحه ، ومستقبلك كله كان معقوداً عليه . فاحذرى الضعف ساعة الحساب يا هستيا . إن الإنسان قد يكره دون أن يعلم أنه على قدر كرهه يحب . فالكره يخفى الحب فى معظم الأحيان يا بنيتى . ومتى أراد الكره أن يعاقب ويضرب فقد يثور الحب فى النفس فجأة ، وتحل الشفقة العميقة محل الكراهية الغامرة . فإياك أن يغدر بك الحب فتشفقى على كرونوس . أية قيمة لحبنا إذا هو لم يرتفع بنا إلى عالم أفضل وأسمى وأبقى منا . فأنت أن غلبت واجبك على حبك ، وعاقبت المذنب دون رحمة ، جاوز حبك نفسه محيط ذاتك الفانية وسما بك إلى حب أروع وأعلى هو حبك لوطنك الباقى وبلادك الخالدة . فانقلى الحب من الأنانية إلى التضحية ، من أرض الناس إلى سماء الآلهة ، من فناء ترابك الجسدى إلى خلود وطنك الغالى فى أصلابه المتعاقبة . ومتى ضحيت بحبك ، وخنقت عامدة قلبك ، وآثرت خلود وطنك على دوام متعتك وسعادتك ، خلدت أنت نفسك فى نظر ذاتك ، وفى ذكرى أهلك وعشيرتك ، وفى عزة وطنك الذى لن ينسى أنه كان على وشك أن يموت فقدر له أن يجد الخلاص على يدك . فتقدمى ولا تجزعى . أضربى ولا تشفقى . هذه كلمتى إليك يا هستيا ، فاذكريها ، وضعيها نصب عينك وأنت تحاسبين الخائن المجرم الشقى ! . . .

وصمت الفيلسوف وهو يلهث . فضمت هستيا ذراعه إلى قلبها وصاحت :

ــ لقد مات حبى وبقى حقدى . والحقد أقوى من أية عاطفة رخيصة يمكن أن تغلبنى . فادخلوا أنتم هنا . فى الجناح الأيمن من بيتنا . والبثوا هناك حتى أدعوكم . ولسوف أبدل أنا جوهر

طبيعتى حتى أنكرها ، وأمعن فى خلق ذاتى خلقاً جديداً عجيباً ، حتى أنفذ إلى أعماق نفس كروزوس ، وأنتزع سره ، وأنقذ وطنى .

ودخل الثلاثة مسرعين . أما هستيا فقد توقفت لحظة ، وتنفست طويلا ثم استجمعت قواها ودخلت الجناح الأيسر حيث كان ينتظرها كروزوس .

* * *

ولكنها ما إن نحت ستار الحجرة قليلا ولمحت الشاب جالساً على مقعد ومعتمداً رأسه بيده ، حتى تملكها ذلك الانفعال العنيف الذى توقعه أستاذها . تخاذلت وتراجعت وأشفقت . وثب حبها فى صدرها وأرجف قلبها رجفاناً كاد يخنقها . لم تستطع أن تتصور أنها ستكون هى السبب فى المصير الفاجع الذى ينتظر حبيبها . نعم . لقد ثارت عليه فى المعبد واحتقرته لضعفه . ولكنها اعتبرته خائناً بالفكر فقط وكان فى عزمها أن تؤنبه وتراجعه وتهديه . أما الآن فهو خائن بالفكر والفعل ، بالنية والعمل . ويجب أن تحاسبه . يجب أن تعاقبه . يجب أن تقتله بيدها هى ، بيدها التى لم تكن تتمنى أكثر من أن تضمه وترعاه وتخدمه الحياة بطولها .

وغشى الدم عينيها ، واشتد خفقان قلبها ، وأوشكت الشفقة الغادرة أن تستبد بها وتقهرها . فتلفتت حولها شبه مخبولة ، وذكرت كلمات أستاذها ، وتصلبت . . . تصلبت جاهدة ، وأمسكت بقلبها ، تهصره بيدها هصراً كأنها تريد أن تنتزع من شغافه كل حبها وكل حنانها . ولما ألفت نفسها ما تزال محجمة ومستخذية وخائرة ، ذكرت شيئاً آخر ألهبها وأيقظها . ذكرت أنها كانت ستقتل والدها نفسه فى سبيل بلادها . فكبر عليها أن تضحى بالوالد وتشفق على الحبيب ، أن تقسو على الأصيل وترحم الغريب ، فضمت قبضتيها ، وعضت بأسنانها على طرف ثوبها الأبيض الذى باركه ملمس الإلهة المقدسة منذ لحظات ، ثم استغفرت الإلهة واستنجدت بها ، ثم رفعت رأسها فى شموخ ، وجذبت ستار الحجرة

فى عنف ، ودخلت على كرونوس امرأة مستبسلة جديدة ، دهشت هى نفسها من حلولها الطارئ فيها ، ومن قوتها التى لم تكن تحلم أبداً بها .

وما إن أبصرها الشاب حتى فتح ذراعيه وأقبل عليها . فارتمت فى حضنه ، وعانقته فى حرارة ، وقبلته فى نشوة ، ثم صاحت به وهى تضمه إلى صدرها ضماً عنيفاً ، وتحاول بكل ما أوتيت من دهاء الأنثى وفتنتها أن تصب فى عروقه سحراً يختم على بصره ، ويخضع إرادته ، ويقهر وساوسه ويخنقها :

ـ ألم يبلغك النبأ ؟ . . .

فتطلع إليها ثابتاً وقال :

ـ ومنذا الذى يجهله . . . إنهم ألقوا القبض على الشاعر أكتيون وأنصاره . ولقد سمعت الجماهير من هنا تطالب بموته . وأكبر ظنى أنهم لابد أن يقبضوا أيضاً على والدك يا هستيا وعلى الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة وجميع من وقعوا المنشور . . .

فصرخت الفتاة :

ـ لم يبق لى غيرك ! . . الجميع فى السجن يرسفون فى الأغلال ! . . . والدى وأصحابه . . . ولكنهم ليسوا وحدهم الخونة . أنت جاهل يا كرونوس بما هو أدهى وأعظم . . . الحاكم نفسه خائن . . . حاكم المدينة هو أكبر عملاء الفرس . . . أتدرى ماذا فعل ؟ . . . لقد أصدر أمره أيضاً باعتقال ابن عمى وأربعة من رفاقه . . . ابن عمى العالم الفلكى الشهير الذى كان يعيش فى صومعته منقطعاً لعلمه وبعيداً عن الدنيا . . .

فارتجف كرونوس وقال :

ـ حتى هو ؟ ! . .

فصاحت هستيا مستنكرة :

ـ أذلك الرجل العبقرى المشهود له بالنزاهة والاستقامة وصدق الوطنية

يمكن أن يكون خائناً ؟ ! . . . لا . . . لقد قبض عليه الحاكم واعتقل أيضاً رفاقه لأنهم كانوا مخلصين وأوفياء لقائد الجيش زعيمنا . . . إن فى فى الأمر لتدبيراً شائناً يا كرونوس . . . إن فى الأمر لطمعاً مروعاً فى الأسلاب والغنائم بعد الهزيمة . . . ولقد بات حاكمنا يعتقد أن هزيمة جيشنا محتومة ، فأراد أن يقضى على المتآمرين والمخلصين معاً كى يصبح هو وحده صاحب الكلمة النافذة فينا ، فيستطيع أن يحالف العدو المنتصر ؟! وأن يفوز هو وأعوانه بحكم البلاد تحت حماية الغاصب المحتل . . . نعم . الحاكم وأعوانه هم طليعة الخونة ، وهم طليعة الوصوليين ، وهم الذين يستخدمون سلطانهم للقضاء على كل من ينافسهم ويعارضهم ، بغية القضاء على جيشنا وعقد الصلح مع العدو . . . فإذا كان ذلك العالم النبيل خائناً ، ورفاقه الأشراف أيضاً خونة ، والحاكم وأتباعه هم وحدهم الأبرار ، فقل العفاء على جيشنا ، وقل السلام فى هذا البلد على كل جهد يبذل من أجل الحرية والخلاص .

والتقطت أنفاسها واستطردت وعيناها تتوهجان كأنما قد تلبستهما قوة علوية تلهمها دورها إلهاماً :

ــ أنا لا أتألم ولا أتمرد لأن والدى الآن طريح السجن . يجب أن يلقى جزاءه . ولكنى أقول كيف يقبض على والدى ثم يكون الذين قبضوا عليه هم خونة مثله ، بل أبلغ منه خيانة وأوقع غدراً ؟ ! . . . هذا ما يثيرنى عليهم . وأن ثورتى لتملأ كيانى ، وتغلى كالمرجل المستعر فى دمى . ولكن ما حيلتى ؟ . . . ماذا فى طاقتى أنا المسكينة أن أفعل ؟ . . . أنا ثائرة ويائسة وكذلك أستاذى وأوريون . كلنا ساخط ، وكلنا ناقم ، وكلنا عاجز . فكيف يطلب منا ونحن أفراد أن نكون أكثر وطنية من حكامنا ؟. كيف يطلب منا أن نبذل بينما القدوة التى تهبط إلينا من أعلى تعلمنا

الأنانية ، وتغرينا بالمصلحة ، وتدفعنا إلى الاستسلام ؟ . . . لا . . . أنا لن أضحي بشخصي إلا إذا رأيت مثل التضحية حياً نابضاً فيمن هم أعظم مني . وما داموا هم قد خانوا ، فأنا أتحلل من كل رابطة وكل قيد ، ولا أفكر إلا في نفسي ومصلحتي . . .

فهتف كرونوس وهو ذاهل :

— ألم أقل لك ؟... بأي حق نموت نحن ويعيشون هم على أنقاضنا في بحبوحة ورخاء ؟ . . . إن حبي هو الحقيقة الوحيدة التي أعرفها ، وهو المبدأ الفرد الذي أصبحت أعيش من أجله وأومن به ! . . . لن أكون مطية للوصوليين ! . . . لن أخدع بهم ! . . . لن أدعهم يتخذونني أداة لأطماعهم ثم يلقون بي جثة هامدة يرقصون على أشلائها متهقهين . إن قوتي في أن ألتهمهم قبل أن يلتهموني ، وأن أعيش وأحب وأسعد قبل أن يقضوا القضاء المبرم علي . . . يجب أن أرحل . فإذا كنت حقاً تحبينني يا هستيا فاتبعيني . . .

فلمعت عينا الفتاة ، وارتمت عليه ، ثم انسكبت في لهفة بين أحضانه ، وانكمشت وتكورت كالهرة المستأنسة المولعة بالملاطفة والدعاب ، وقالت فجأة وهي تتأرجح على ركبتيه وتقبله :

— وإلى أين ستأخذني ؟ . . .

فقال وقد أشرق محياه :

— إلى أية جزيرة نائية في البحر المتوسط ، إلى أية بقعة من الأرض يمكن أن تكون وطن الحب والحرية والنعيم الدائم الأبدي .

فقالت هستيا وهي تحملق فيه وتبتسم في دهشة كالأطفال :

— ومن أين لك المال ؟ . . . ما أظنك قد جمعت ثروة وأنت في ساحة الحرب ؟ . . .

فرماها بنظرة فاحصة ، واضطرب بالرغم منه ، ومرت على وجهه المحتقن سحابة من ريبة . . . ولكن الفتاة عاجلته بضحكة ساذجة ناضرة ، وتعلقت بعنقه وصاحت :

ــ أية قيمة للمال ما دام هناك حب . الحب نفسه ثروة تكسو وجه الفقر طبقة من ذهب . وسواء أضمني بك الحب فى قصر أم فى كوخ ، فأنت الذى أنشد ، وأنت أملى وحلمى ، ومن قلبك وحده تنبع سعادتى لا من الجدران والأحجار !

فطرب الشاب ولم تعد تسعه الدنيا ، وردد :

ــ إذن فاتبعينى !

فقالت فى صوت جهير يتقد حباً ومغامرة وعزماً :

ــ سأرحل معك !

فجثا عند قدميها ، وطوقهما بذراعيه ، وطفق يقبلهما كمعتوه . اختلج بدنه ثقة وعزة ونصراً ، وتحدرت على وجنته دمعة فرح ، وتمثلت فيه صورة إنسان كان يطلب المستحيل فدان له المستحيل وأذهله وروعه وسحقه .

ونظرت إليه الفتاة وهالها مرآه . هالها أن يحبها على هذه الصورة . هالها أن يبكى من فرط عشقه لها فتغدر هى به عامدة وتطعنه . فعاودها الحنان ، وعاودتها الشفقة . فرقت الشفقة قلبها ، بل قطعت أحشاءها ، وكادت أن تعصف بها وتعميها عن رؤية واجبها . ولكنها تراجعت وتماسكت . تصلبت جهدها كما فعلت منذ لحظة . ثم تصورت والدها يلعنها ، وأستاذها يلفظها ، وأوريون يزدريها ، والكاهن الأعظم يصب جام سخطه عليها ويحرمها من دخول المعبد ويعلن فى الملأ أنها مارقة وخائنة . فجن جنونها ، وعز عليها مصيرها ومصير وطنها . فغرست أظافرها فى راحتيها ، وقالت صارخة :

ــ وأين نلتقى ؟ . . . ومتى ؟ . . .

فهمس كرونوس وهو يزفر :

ــ الليلة . . . يجب أن نرحل الليلة . . . وسأكون فى انتظارك بعد منتصف الليل ، عند سفح الهضبة الكبيرة القائمة خلف مساكن الشعب البعيدة عن قلب المدينة ومشارف المعبد . . . لقد أعددت عدتى . . .

فانتفضت الفتاة وأحست أن الساعة المرتقبة المرهوبة قد دنت . فأهابت بكل ما فيها من شجاعة وصلابة ، وأسرعت وقالت قبل أن تشفق مرة أخرى وتنهزم :

ــ وشقيقك . . . بلوتون . . . ذلك الرجل الطيب الكريم الذى رباك بعد وفاة والدك ، وعلمك وثقفك ، ولم يشأ أن يتزوج خشية أن تستبد امرأته بك . . . أنتركه هنا ؟ . . . أندعه فريسة للحاكم ؟ . . . سيعتقد الحاكم الخائن أنك فررت لتلحق بالجيش ، وأنك ستعلن عن خيانته ، وتفضح خططه عند القائد الزعيم ، فيقتل شقيقك انتقاماً منك ! . . . أفيهون عليك أن تسلم أنت ويموت الرجل الذى هو بضعة من لحمك ودمك ؟ . . . لا . . . أنا لا أقبل . لا أقبل هذا أبداً !

فصاح كرونوس وقد راعه إخلاص الفتاة وضاعف حبه تأججاً واشتعالاً :

ــ بلوتون سيرحل معنا !

فلم تمهله وقالت وبدنها يكاد ينخلع :

ــ ولكن أين هو الآن ؟ . . . ألم تقل انه يختفى فى مخبأ عينته أنت له ؟ . . . فأرشدنى إلى ذلك المخبأ وابتعد . . . لا تظهر . . . الحاكم لا يمكن أن يغفل عنك وأنت الوطنى المخلص ورئيس فرقة الفرسان . وهو كما قلت لك لا بد أن يتعقبك ويقبض عليك خشية أن تلحق بفرقتك وتفضح تدبيره عند القائد . فما الذى يضطرك للظهور والاستهداف

للخطر ؟ . . . أهو المال الذى جمعته والذى نحن فى حاجة إليه ؟ . . . لا ريب أنك أودعته عند أخيك . سأجيئك أنا به . فابق هنا ولا تخرج . إنى خائفة عليك . الحاكم لن يفكر أبداً فى اقتحام بيتى بعد أن اعتقل والدى . . . فدعنى أذهب إلى المخبأ . . . سأتصل بأخيك تحت جنح الظلام ، وأصطحبه معى إلى سفح الهضبة الكبيرة حيث تلحق بنا أنت . وهكذا نفر جميعاً وننجو . . . فقل لى أين يختبئ بلوتون ؟ . . . تكلم . وثق فى حنكتى وذكائى ، واعتمد بعد الإلهة على ! . . .

وتراجعت كمن يتحفز لعمل جرىء هو خليق به ، ووقفت مرفوعة الرأس شامخة ومتأهبة . فبهره صدقها ، وفيض حماستها وغيرتها ونبلها . فاندفع إليها شارداً مفتوناً ، وضمها إلى صدره كمن يضم كنزاً ، وقال وهو يغمر وجهها بالقبلات :

ــ فى الكهف . . . فى كهف المجذومين ! . . . هناك خبأت شقيقى ، فى ذلك الكهف الذى كان يطرح فيه مرضى الجذام قبل أن تنشئ الحكومة مستعمرة لهم . . . الكهف على بعد ساعة من هنا . ولكن كيف يمكنك أنت الذهاب إلى هناك ، واجتياز الطريق فى الليل بدون رفيق ؟ . . .

فقالت هستيا وهى ترتعد :

ــ إذن فالمخبأ هو كهف المجذومين ؟ ! . .

وتقلصت عضلات وجهها تقلصاً مخيفاً ، وتلوت فى تشنج وألم كظيم ، كأن قوة تعتصرها اعتصاراً وتستنزف آخر نقطة من دمها . ولم تشأ أن تنظر إلى كرونوس . فأغمضت عينيها . . . أغمضت عينيها كى لا تراه فى هذه اللحظة الرهيبة ولا تنجذب إليه ولا تدع قلبها يتأثر ويتحول ولو بمسكة من الشفقة عليه . وقبل أن يوجس ويتنبه ويستفيق ، غافلته وهو ساهم ، واستصرخت فى عمق نفسها معبودتها الجبارة بالاس ، ثم انحنت على الشاب ، واختطفت منه خنجره ، ودسته فى صدارها ، ثم

انطلقت نحو باب الحجرة ورفعت ستاره ، وصاحت بصوت غائر مخبل مخنوق :

ــ تعالوا . . . ادخلوا . . . لقد اعترف ! . . . إن شقيقه الذى يحمل أسرار جيشنا يكمن الآن فى كهف المجذومين ! . . .

واندفع إلى الحجرة والدها وأستاذها وأوريون ونفر من رجال الشرطة الذين كانوا قد حاصروا البيت . وما إن أبصرهم كرونوس وشاهد والد هستيا حراً طليقاً ، حتى تراجع مصعوقاً وجمد . اندلعت عيناه ، وارتجفت شفتاه ، ورمى الفتاة بنظرة من نار ، وظل يحدق إليها منهوم الفم ، مستشيط العين ، ممسوخ القسمات ، أشبه بوحش وقع بغتة فى فخ ضيق المنافذ عالى السدود ، فهو يود أن يعض وينهش ويثأر فلا يستطيع . . . ووضحت أمامه المكيدة المحكمة التى دبرتها له المرأة الوحيدة التى أحبها . أدرك لفوره أن قصة الحاكم كانت كلها محض اختلاق . أدرك أن والد الفتاة ورئيس الشرطة كانوا جميعاً جواسيس للحاكم والقائد عليه هو وعلى بقية المتآمرين . فتاه عقله ، وأيقن من موت شقيقه وموته هو أيضاً بالسهام أو الحراب بعد أن يجر فى شوارع أثينا ، ويعرض على الجماهير الثائرة ، ويلطخ اسمه واسم أسرته بشر ضروب الفضيحة والعار . فظل لحظة تائهاً كأنه فى بحران حمى ، ولم يتكلم . وعندئذ دنت منه هستيا وصاحت بأعلى صوتها وهى تتفطر وتتلوى والدمع ينهمر من عينيها :

ــ أشهد الآلهة يا كرونوس علىّ أنى كنت أوثر أن يكون عقابك وعارك على يد غيرى . كنت أحبك بل أعبدك يا كرونوس . كنت أستدرجك وأتمزق . كنت أحاسبك وأتقطع . كنت أدينك وقلبى المفعم بالشفقة عليك يقطر دماً . ولكنى كنت مجبرة يا كرونوس . كنت مواطنة قبل أن أكون امرأة ، وكنت إغريقية قبل أن أكون أنثى وعاشقة . كان يجب أن أضع واجبى فوق حبى ، وأن أتجرد من كل رحمة وأحب موتك

يا حبيبي . لأستطيع أن أحب الحياة لوطني ! . . . فقدر موقفي يا كرونوس ولا تكرهني . أشفق عليّ شفقة أستحقها ولا تبغضني . لقد ارتفعت أنا بحبنا إلى عالم أسمى وأبقى منا . فانظر أنت إلى هذا العالم فقط ولا تنظر إليّ . انظر إلى وطنك ولا تحقد عليّ . كن نبيلاً كما كنت في ماضيك ، وكفر عن جريمتك مختاراً واقبل عقابك . اقبل العقاب العادل واحتمله في إقرار متواضع بذنبك ، أحس أنا أن وطنيتك قد بعثت وضميرك قد استفاق ، فأعبدك روحاً أكثر ألف مرة مما كنت أعبدك جسداً ، وأعاهدك على ألا أعرف بعدك أي رجل ، وأن أدخل المعبد منذ الساعة ، وأنقطع فيه عن الدنيا ، وأنذر نفسي وحياتي لخدمة الآلهة حتى أموت ! . . .

فاختلج كرونوس اختلاجاً عنيفاً ولم يجبها بكلمة . لم يلق عليها أية نظرة ، بل أشاح بوجهه وأجال بصره في أوريون الناقم الحاقد ، وفي الفيلسوف الهادئ المتأمل ، واستقر على والد هستيا الجامد الصابر . فاتجه نحوه ، واتأد فترة ، ثم قال في صوت ثابت جهير :

ـــ لا أنكر شيئاً مما تتهمونني به يا سيدي . أنا مقر بأني قد فررت من الجيش وسرقت أسراره ، ومقر بأني خائن لوطني ومستحق للعقاب . ولقد ندمت كل الندم على جريمتي . ندمت من أعماق قلبي ولم أعد آمل في أكثر من أن يشفع لي ندمي عند الآلهة فتغفر لي في العالم الآخر وترحمني . ولكني جندي يا سيدي ، جندي خدمت بلادي في ساحة الحرب مرات ، وقاتلت في بسالة وجرحت . فغاية ما أطلب الآن هو أن تجنبني الفضيحة والعار . فأعطني سلاحي أقضي به على نفسي بنفسي ، وأموت كجندي لا كمجرم . هذا كل ما أطمع فيه يا سيدي . فلا تبخل عليّ بهذه النعمة في لحظتي الأخيرة وترفق بي ! . . .

فاضطرب الكاهن ورمق الفيلسوف بنظرة . أما هستيا التي لمست فعل كلماتها في نفس كرونوس ، والتي كان عزاؤها الأوحد أن تراه يرتد إلى

حظيرة الوطن تائباً نادماً متطهراً قبل أن تفقده إلى الأبد ، فقد راعتها عباراته ، وبهرتها يقظة ضميره ، وأثلج صدرها فرط ندمه وتوبته . فاستضاء وجهها ، وتألقت عيناها ، وانبعثت أمامها صورة الفارس الوطنى البطل الذى كان بالأمس كل حياتها . فارتمت على والدها ، وتشبثت به وصرخت :

ـ ما جدواكم من تعذيب الرجل وتلويثه ؟ . . . ما جدواكم من عرضه فى شوارع المدينة أمام الشعب الثائر ، ثم قتله بالسهام أو الحراب كأنه قاطع طريق ؟ . . . إن أسرار جيشنا فى حوزة شقيقه ، وشقيقه أصبح الآن فى قبضتكم . أما هو فقد رد إلى نفسه اعتبارها بيقظته الخالصة وندمه العميق . فأنا ، أنا التى مالأته واستدرجته وانتزعت لكم سره ، من حقى عليكم أن تدعونى أفصل فى القرار الذى يجب أن تنتهى بموجبه حياته ! . . . لا . . . لن تنتهى بموت الرجل كمجرم . . . لن يلطخ بالعار بعد أن استهول الجريمة وآمن بالوطن . . . خذ سلاحك ياكرونوس ، واسترد ولو بعض كرامتك ، ومت على الأقل كجندى . خذ . . .

وانتزعت خنجره من صدارها ودفعت إليه به . فانحنى حتى الأرض وهو يتناوله منها . ثم رفع رأسه وحدق إليها . فألفت نفسها فجأة تجاه عينين واسعتين ضاريتين مثبتتين فيها . فأجفلت وتراجعت . ولكن كرونوس لحق بها . وقبل أن تتنبه هى أو يفطن أوريون أو والدها أو أستاذها أو رجال الشرطة ، غافلها الشاب وهى مشدوهة ، وجذبها فى عنف إليه . وفى مثل خطف البرق أو وقع الصاعقة ، أغمد خنجره فى صدرها . ثم انتزعه وحاول أن يضرب به نفسه . فأسرع الجند وارتموا عليه ، ثم جردوه من سلاحه وكبلوه ، بينما كان أوريون يطلق صرخة مدوية ، ويتلقى الفتاة بين ذراعيه ، ويرقدها على إحدى الآرائك ، والفيلسوف وقد ملكه الذعر ، يهرع إليها ، وينادى الخدم ، ويطلب طبيباً ، ووالدها المسكين ينحنى

عليها ويهزها فى تهافت وخبال ، ويصيح :

ــ هستيا . . . حبيبتى هستيا . . .

ولكن الفتاة التى كان ينزف الدم من صدرها ، زفرت زفرة مخنوقة أعقبها أنين أجش . ثم أرسلت نفساً عميقاً سمع له اصطخاب أشبه بهدير موج . ثم اصفر لونها ، وغارت وجنتاها ، ولمعت عيناها الجاحظتان لمعاناً ثابتاً خاوياً مخيفاً لا أثر فيه لأى وعي بشرى . ففقد الوالد صوابه ، وصرخ وهو يضرب صدره بقبضته وينفجر بالبكاء :

ــ ماتت ابنتى ! . . . ماتت هستيا ! . . .

وأخذته أخذة مروعة من الحنق والكمد واللوعة . فتحول إلى الجند ، وأشار إلى كرونوس وصاح :

ــ لقد عاش خائناً وانتهى نذلاً . فعذبوه . عذبوه هو اليوم بالفضيحة أولاً ، ثم عذبوا بها فى غد شقيقه الذى هو الآن فى قبضتكم . . اعرضوهما على الجماهير فى الشوارع . مرغوهما فى حمأة الذل والتنكيل والعار ، ثم اقتلوهما بالسهام أو الحراب . فكلاهما أغلظ وأقسى من أفتك مجرم قاطع طريق ! . . .

فانقض الجند على كرونوس ، وجردوه من مئزره العسكرى وقميصه ، وانتزعوا من صدره شارات فرقته ، وكبلوا قدميه بالأغلال ثم ساقوه . فعاد الوالد وارتمى على جثة ابنته ، وأردف مخبولاً وهو يقبلها فى حرقة ويبكى :

ــ احملوها إلى فراشها . . . اغمروها بالزنابق والورود . . . سيصلى عليها الكهنة هنا . . . وستدفن هنا . . . فى ضريح بيتى . . . فى الضريح الذى دفنت فيه أمها ، والذى لابد أن ترحمنى الآلهة وشيكاً وتغيبنى أنا أيضاً فيه ! . . .

ومد ذراعيه المرتعشتين ليعاون فى حملها . ولكن أوريون ، أوريون

الذى كان يتأملها ويختلج ، ويضم إلى صدره جسدها البارد والدمع يطفر من عينيه ، تشبث بها ، وأحكم ضمها واعتناقها ، وصاح فى صوت غائر قاطع تمشت فيه شبه لوثة من جنون :

– لن يجسر واحد منكم على أن يسلبها منى . إنها الآن لى . . . لى أنا وحدى ! ... لقد أحببتها وعبدتها كما لم أحبب وأعبد آلهتى ! . . . فأنا الرجل الشقى ، أنا الرجل الدميم المحتقر المنبوذ الذى وهبت كل ما أملك لوطنى ، وكنت أتعس إنسان برغم ثرائى ، ولم أشعر فى حياتى بأية نفحة من حب أو قبس من حنان ، ألتمس منكم ، بل أتوسل إليكم أن تعطونى هستيا . . . لا تأخذوها منى . . . إن مثلها لا يسجى على أرض فانية كجميع الناس . . . يجب أن يصلى عليها فى المعبد لا هنا . إنها منذ اليوم عذراء الوطن الخالدة . لقد ماتت شهيدة . فالمقبرة الخليقة بها هى مقبرة المعبد المقدسة حيث ترقد من حلت عليهن معجزات الإلهة بالاس ، ومن اختلطت عظامهن بعظام خادمات الهيكل البتولات الطاهرات . . . هناك مثوى ابنتك يا سيدى الكاهن . فلا تحرم الوطن من تقديسها ، ولا تحرمنى أنا منها . فأنا سأقتدى منذ اللحظة بها . سأفعل ما كانت ستفعله هى من أجل رجل لا يستحقها . سأودع الدنيا فى سبيلها ، وأدخل المعبد ناذراً نفسى لخدمة الإلهة ، وأظل فى المعبد بجوار قبرها ، أحبها وأذكرها وأصلى ، حتى تحبنى هى ، وتناديني ، فأموت وقد استوعبت روحها روحى كما يستوعب النور ظلمة الليل الحالكة ! ... فلا تكن أنانياً يا سيدى ، ومر بحمل ابنتك إلى المعبد ...

وما كاد أوريون يتم خطابه ، حتى اهتزت جوانب البيت ، وتصاعدت من الخارج جلبة كبيرة ، ثم شوهدت الجماهير التى علمت من رجال الشرطة بخيانة كرونوس واستشهاد هستيا ، تتقدم نحو البيت كالسيل الجارف ، وتصرخ طالبة تمجيد الشهيدة وحملها إلى المعبد .

فهتف أوريون والفرح يخنقه :

— هذا هو صوت الشعب !

فلم يسع الكاهن إلا أن يسلم . فتقدم أوريون نفسه وحمل الجثة بمعاونة أستاذه ، وخرج موكب الشهيدة يتبعه والدها الشيخ وخدم الدار ، وطوائف الشعب التى كانت تهتف للعذراء المجيدة ، وتستنزل لعنة الآلهة على كرونوس ، وتغافل الجند وتقتحم نطاقهم ، كى تبصق فى وجه المجرم ، وهو عارى الصدر ، مكبل اليدين والقدمين ، يمسح بذراعه قطرات الدم التى تسيل من وجهه ، ويشهد عاره بعينيه قبل أن يضرب بالحراب ويموت .

ولما دخل الموكب المعبد ، أقيم جثمان هستيا على منصة عالية عند قاعدة تمثال الإلهة بالاس ، وغطته خادمات الهيكل بالزنابق والورود وسعف النخل وأكاليل الغار التى كان قد جاء بها الشعب . ثم تقدم الكاهن الأعظم وقدم عليه والد الشهيدة ، وشرع يتلو صلاة الجنائز ، ومن حوله الشعب ينتحب وصغار الكهنة يحبسون دموعهم ويرتلون .

ولما صمت الكل فترة ، وأنصتوا لسماع كلمة التأبين ، نهض الفيلسوف الذى كان قد تداعى من فرط الألم وجلس على إحدى درجات المعبد ، وتمالك نفسه ، ووقف فى الجمع المحتشد ثم رفع ذراعه وقال :

— إخوانى وأبنائى فى الوطن الجريح . . . منذ أن تحضر الإنسان عز عليه أن يفنى جهاده . فصبت نفسه إلى الخلود . أحس أن حياته الشخصية فانية . فآمن بالدين كى يخلد ، وآمن بالعائلة كى يخلد ، ثم آمن بالوطن لأن الوطن هو الرمز الشامل المقدس لخلوده وخلود أصلابه ، وخلود جميع من تحملهم الأرض التى منها يتنفس وبوساطتها يعيش . ولكن الإنسان قوى وضعيف ، باذل وأنانى . وهو دائم التأرجح بين مصلحته الخاصة ، وبين ما عليه من واجب نحو الوطن الذى يغدق عليه خيره والذى يكلؤه ويحميه . فبقدر ما يقهر الإنسان أنانيته ، وبقدر ما يتفوق على ضعفه

وغرائزه ، وبقدر ما يتألم ويبذل ويضحى ، يرتفع فى سلم التحضر ، ويتسنم ذروة الخلود الأسمى فى الحياة والموت من أجل وطنه وخير العالم . وهذا ما فعلته الشهيدة هستيا . لقد أحبت والدها وخطيبها بكل قوى قلبها وإيمانها وشبابها . فلما صدمتها الخيانة وأيقنت من خطرها الداهم على بلادها ، أنكرت بنوتها ، ثم قهرت حبها ، ثم غالبت النعيم الباطل الذى كان فى متناول يدها ولم تتردد فى تسليم حبيبها الخائن الذى حاولت مع ذلك أن تهديه فقتلها . فهذه الفتاة وضعت كرامتها فوق حبها ، ووطنها فوق نفسها ؟ وخلودها فى الوطن الباقى فوق نعيمها فى دنيا الحب البشرى الفانية . فاتخذوا منها مثلاً حياً لكم . قدسوها ما حييتم . واعلموا أن النصر لو حالف فى معركة الاستقلال قائدكم وزعيمكم ، فسيرجع الكثير من الفضل فيه إلى الشهيدة الباسلة التى ماتت من أجلكم!

فانحنت الجماهير فى خشوع ورددت :

— المجد للوطن ! . . . المجد لهستيا ! . . .

فتقدمت خادمات المعبد ، ورفعن الجثمان وسط عاصفة من الهتاف ، وحملنه إلى المقبرة المقدسة القائمة تحت حرم الهيكل ، بينما كانت الجماهير تندفع نحوه ، وتتألب عليه ، كى تلمسه وتتبرك به قبل أن يغيب عن أعينها ويستقر فى مثواه الأخير .

وانتهت الصلاة وانصرفت الجماهير شيئاً فشيئاً . ولكنها لم تغفل عن القيام بالواجب المفروض عليها نحو أسرة الشهيدة . فانطلقت فى الشوارع تجمع زنابق وورود وأكاليل غار أخرى ، لتحملها إلى الكاهن الأول تعزية له وتمجيداً للبيت العتيد الذى ولدت فيه هستيا .

وساد الصمت فى المعبد . فارتعش أوريون الدميم وظل ينظر فى سكون إلى حجرة المقبرة . نظر إلى قلبه ، إلى روحه ، إلى آماله ، إلى حلمه العظيم الذى استحال فى مثل لمح الطرف حقيقة واقعة . فانخلع بدنه وأومضت

عيناه وأحس فرحاً عاتياً غمره وأذهله وأنساه حياته البائسة كلها .
فلم يتمهل وتقدم . تقدم لفوره . تقدم وهو تائه ونشوان ، وعانق والد
حبيبته ، ثم عانق أستاذه ، ثم صارح الكاهن الأعظم بما اعتزم عليه .
ولما أجابه الكاهن إلى سؤله ومنحه بركته ورضاه ، خلع أوريون نعليه ،
وتمم صلاة قصيرة . ثم مشى كالمؤمن المجتبى ، ودخل حرم الهيكل الذى
تنهض تحته المقبرة التى دفنت فيها هستيا . وهناك حيث آلى على نفسه أن
يعيش ويموت ، ارتمى على سطح المقبرة المقدسة ، وبسط ذراعيه الملهوفتين
كأنه يحتضنها ثم قبل أرضها الطاهرة وبكى .

وعندئذ فقط أحس أن موته عن الدنيا هو الحياة ، وأنه الآن
مكتمل السعادة كالأرباب ، وأن هستيا قد أصبحت حقاً له وحده ،
وأن من المحال أن ينازعه فى حبها بعد اليوم إنسان .

* * *

ولم يفلح الفرس فى الوقوف على أسرار جيش الإغريق ، ولم تنشب
أية ثورة داخلية بعد مصرع كروزوس وشقيقه وعصبة المتآمرين . فاطمأن
القائد الزعيم ملتيادس ، وتأهب لمعركة الاستقلال الفاصلة فى سهل ماراثون .
فطاف بجنوده قبل المعركة ، وأثار حميتهم بذكر ما أقدمت عليه هستيا
عذراء الوطن الشهيدة ، ثم أطبق بجناحيه القويين على جيش الفرس .
فمزق صفوفهم ، وما زال بهم يتعقبهم ويطاردهم حتى حطمهم تماماً وألقى
بهم فى البحر .

من بلاد فارس

طريق الشرك

«كانت بلاد إيران حتى عام ٢٢٥ للميلاد محكومة بطائفة من الملوك الأجانب عرفوا باسم « الأرزاس » وانحدروا إلى إيران من شمال غرب آسيا . وقد استبد أولئك الملوك بالشعب الإيرانى وعاملوه معاملة القطيع . وكان الملك أرتبان الرابع أشدهم ظلماً واستبداداً . فتشجع أهل مدينة « كرمان » وأعلنوا الثورة عليه بقيادة ضابط إيرانى باسل خرج من صميم الشعب ويدعى « أردشير » . وتدور وقائع هذه القصة حول الحادثة التاريخية الغريبة التى عززت قوى الثورة ، والتى تمثل أبلغ تمثيل كفاح شعب وجهاد زعيم وبطولة فنان » .

* * *

كان الفنان الشيخ « بهزاد » قد بسط على لوح من خشب قطعة قماش مربعة كبيرة ثم تراجع خطوة وجعل يتأملها ، وأصابع يده الضامرة تعبث بطرف لحيته الكثة البيضاء . .

وكان قد رسم على القماش سماء حمراء ، ونسوراً سوداء ، وأتربة خانقة ، وفرساناً يتقاتلون ، وعذارى تحث المقاتلين على الثبات ، وشيوخاً يخطفون سلاح الجرحى ويندفعون به فى حومة القتال ثم يسقطون على الأرض مستشهدين وهم يهتفون

وكان بهزاد قد فكر أول الأمر فى رسم بستان خصيب يانع الثمار . ولكن إحساسه الوطنى تحكم فيه بغتة ، فدفعه إلى رسم معركة صغيرة . وسرعان ما استحال البستان إلى سهل فسيح ، والأغصان والأشجار إلى مشاة وفرسان ، والمعركة الصغيرة إلى حرب طاحنة تشترك فيها أمة بأسرها .

وعجب الشيخ من نفسه كيف فكر فى شىء ثم صدر عنه شىء آخر . فأدرك أن إحساسه الوطنى هو المسيطر عليه وأن خوفه العميق على مستقبل بلاده هو الذى تحول بفكره وخياله ، وهو الذى أوحى إليه رسم هذه اللوحة ، تفريجاً عن صدره ، وتلطيفاً للألم العميق الذى يعانيه .

ونظر إلى قطعة القماش نظرة فاحصة واتقدت فيه شخصية الفنان . لم يقنع بما رسم . لم يطرب لما رأى . كان ينشد الكمال . فطفق يصلح ويهذب من هياكل العذارى المجاهدات ومن صور الأبطال المقاتلين وهو يتأمل اللوحة بعينين ثاقبتين ويرتجف ...

وكان بهزاد أول فنان إيرانى تطور بفن الرسم من الزخرفة إلى التعبير ، من الخطوط الملتوية المتعرجة المنسجمة التى تطرب العين ، إلى الشخوص الدقيقة الحية النابضة التى تطرب العين والقلب والفكر على السواء .

وكان مما حبب الجماهير فى فنه ، روحه القومية الأصيلة ، وذلك الإحساس الإيرانى الصميم الماثل فى رسومه والنابع من شعوره بأن أمته خليقة بالمجد ، حقيقة بالعظائم ، جديرة بأن تعيش وأن تنفض عن كاهلها عبء الذل الذى فرضه عليها الملوك المستبدون الطغاة .

والحق أن بهزاد كان قد رسم عدداً كبيراً من اللوحات التى تمثل بؤس الشعب وعذابه . فكان فى رسومه رجع صدى العواطف المتأججة فى صدور أبناء وطنه . كان مثلهم ثائراً على حكم الملك الظالم أرتبان ، متمرداً على أسرة الأرزاس العاتية ، تواقاً إلى تحرير وطنه من سلطانها ، وإقامة دولة إيرانية جديدة يتولى الحكم فيها الزعيم أردشير الذى خرج من الشعب والذى يكافح ويجاهد لا لمصلحة طبقة بل لمجموع الشعب .

فهذه الروح ، روح الثورة والتحرر ، أبصرها الآن بهزاد تنبض وتختلج فى صورة المعركة التى أبدعها بوحى من عقيدته الوطنية الراسخة . فابتسم للصورة . وعاد فانكب عليها يهذبها أيضاً ويصقلها . ولكن يده

البصيرة كانت مع ذلك ترتعش ، وعينه المتقدة كان يغشاها هم دفين ، وفكره المتنبه اليقظ كان يسبح بين لحظة وأخرى في عالم لا يمت إلى الصورة بصلة . . .

وابث برهم غير حافل . بيد أنه خاف أن يشوه اضطرابه جمال فنه . خشى آخر الأمر من نفسه على عمله . أحس أن سلطان الألم يوشك أن يطغى عليه . فتنهد وألقى بفرشاته جانباً ثم صفق . فدخلت جاريته حاملة وعاء كبيراً وإبريق ماء . فغسل يديه ، ثم ألقى على كتفيه عباءته الحمراء ، وأمر الفتاة بإغلاق جميع أبواب البيت . ثم توكأ على عصا ، واستنهض قواه الخائرة وانطلق . . .

* * *

وظل يمشى في شوارع مدينة « كرمان » ، مستغرقاً في التفكير ، متطوحاً كالشارب الثمل ، والناس يحيونه ، والشباب يفسحون له الطريق ، والعظماء ينحنون له ، والنساء يتبعنه النظر معجبات ، ويتبرك البعض منهن بلثم أطراف عباءته .

ولما أشرف على الفندق الذى اجتمع فيه أصدقاؤه ومريدوه ، خرج إليه الكل وأحاطوا به ، واستفسروه عن آخر أنباء الثورة ، والتمسوا منه أن يبقى لحظة معهم . فخطب فيهم حافزاً هممهم ، مستنهضاً عزائمهم ، مضرماً في صدورهم روح الكفاح ، مثيراً في نفوسهم إرادة الثبات والصبر والأمل المحقق في النصر القريب . ثم تملص منهم ، وحنى رأسه في عياء ، واستطرد السير جاراً قدميه جراً ، ومتجهاً بخطى حثيثة نحو قصر ابنته الوحيدة أمسترس .

* * *

وكانت « أمسترس » مضطجعة على أريكتها ، وحولها جواريها ينادمنها ، أو يرقصن رقصات محببة إليها ، أو ينشدنها بعض أبيات من الشعر ، أو

يسمعنها أغانى العشق والجوى .

وكانت متبرمة متضجرة ، تتقلب على فراشها ونظراتها مصوبة إلى جاريتها الصغيرة « أتوسا » تلحظ ابتسامتها الناعسة وهى تترقرق فى سكون حالم على وجهها الصبيانى الجميل .

ولم تشأ أتوسا فى ذلك اليوم أن تغنى لأن سيدها رب الدار كان متغيباً ، ولأن أمسترس كانت حزينة تفكر فيه ولا تدرى متى يعود .

وكانت الشمس ترسل أشعتها من خلال قضبان النوافذ الحديدية ، وتلقى على وجوه الجاريات بدرات من لؤلؤ يضاعف تألقها بريق أثوابهن الموشاة بخيوط من فضة وذهب .

وأوشك النوم أن يأخذ بمعاقد أجفان أمسترس ضجراً وسأماً . فعادت تطلب إلى أتوسا أن تغنى . فأطرقت الفتاة مذعنة ، وأمالت رأسها ، واتكأت على الأريكة ، وأشارت إلى زميلاتها أن يبدأن . فامتلأ جو القصر فجأة بنغمات المزمار واصطفاق الدفوف ورنين الصنوج ، وأنشدت أتوسا فى صوت حار شجى :

« الساعات تمر ثم تعود .

وكذا الأعوام تمر ثم تعود .

وضباب الزمن يهطل مطراً علينا ،

ويحجب الحب الذى إن مر لا يعود ! »

فتأوهت أمسترس ، وفاض الدمع من عينيها . فكفت أتوسا عن الغناء ، وسكنت حركات الجوارى ، وشاع الصمت فى القصر بغتة وزايلته الحياة . ولكن أمسترس أهابت بجواريها فنهضن مسرعات وشرعن يرقصن ، وفى تلك اللحظة فتح باب الصدر وظهر الشيخ بهزاد . فجمدت الأبدان المتمايلة ، ثم انحنت جميعاً أمام الضيف ، ثم تقهقرت وانسابت وغابت ظلالها خلف الأبواب .

وخفت أمسترس لاستقبال والدها ، وقبلت يده فى احترام ، وأجلسته على الأريكة ، ثم تربعت أمامه على الأرض فرحة بمقدمه ، مبتهجة بزيارته . غير أنها لم تشأ أن تبدأ الحديث . فتريثت وجعلت تحدق إلى الشيخ وقلبها يختنق . ولما رأته شاحب الوجه ، زائغ البصر ، متقبض القسمات ، أوجست خيفة ، وتشجعت وقالت فى حنان :

ـ ما بك يا أبت ؟ . . .

فرفع بهزاد رأسه ، ونضا عنه عباءته ، وقال فى صوت غائر دون أن ينظر إلى ابنته :

ـ أتعلمين يا أمسترس إلى أين ذهب زوجك ؟ . . .

فأجابت متجاهلة :

ـ قال لى انه على موعد من الزعيم أردشير ، وانه قد يتغيب اليوم ثم يعود بعد ظهر غد . . .

فضم بهزاد شفتيه وأطرق ، ثم قال فى هدوء وهو يضع يديه فى رفق على كتفى ابنته :

ـ وقد لا يعود إلى هذه المدينة أبداً .

فصرخت أمسترس فى ذعر مصطنع :

ـ ماذا تقول ؟ . . .

فتحامل الشيخ على نفسه ، ونهض عن الأريكة ، وجمع أطراف ثوبه الفضفاض ، وتربع فوق وسادة على الأرض بجوار ابنته ، وقال :

ـ إن الزعيم أردشير هنا فى مدينتنا ، فى كرمان . ولكن زوجك لم يذهب إليه . . . زوجك ليس هنا . . .

فقاطعته نافدة الصبر :

ـ ولكن أين هو إذن ؟ . . .

فنكس بهزاد رأسه وأجاب :

ـ فى مدينة هرمز . . . عند عدونا ، عند الملك أرتبان ! . . .

ففغرت المرأة فاها كأنها بلهاء وتمتمت :

ـ أسافر إلى هرمز ؟ . . .

ثم أردفت وهى تشيح بوجهها :

ـ ولكن كيف؟ ألم ينضم زوجى إلى الثوار ؟ ألم ينضم إليكم ؟ ألم يقسم يمين الطاعة لزعيم الشعب أردشير ؟ . . . فكيف يغادر الآن مدينة كرمان مركز الثورة ، ويلحق بعدونا الملك أرتبان فى هرمز ؟ . . .

فقطب بهزاد حاجبيه وقال :

ـ لقد خان زوجك قضيتنا . خان بلاده وطعنها فى ظهرها . كان رئيس الكهنة فأراد أن يصبح الوزير الأول . فلما اندلعت الثورة بقيادة الزعيم أردشير وانهزم الملك الأجنبى أرتبان وارتد إلى مدينة هرمز واستقر فيها كى يجمع فلول جيشه ويتهيأ لمواصلة قتالنا ، أرسل إلى زوجك « باردس » يعرض عليه منصب الوزارة إن هو كف عن تأييد الزعيم أردشير واستطاع فوق ذلك بالقوة أو بالحيلة أن يسرق . . . أتفهمين ؟ . . .

فصاحت المرأة :

ـ يسرق ؟ . . .

فأجاب الشيخ :

ـ نعم . يسرق من الهيكل شعلة جهادنا ، مصدر الحكمة والنور لشعبنا ، الوصية الروحية المقدسة التى خلفها لنا مؤسس عقيدتنا المصلح زرادشت العظيم . ولقد فر زوجك إلى هرمز . لحق بعدونا ومعه الوصية . . . سرق الوصية المقدسة وفر . . .

فهتفت أمسترس :

ـ زوجى يفعل هذا ؟ . . .

فصاح بهزاد :

ـ لقد خان الوطن وخان الله ، بل هو بالسرقة المروعة التي أقدم عليها قد يخمد نار ثورتنا ، ويقضي القضاء المبرم على آمالنا ، ويمكن للملك المستبد من أن يعود فيرتد علينا ويحكمنا ، ويسومنا شر ضروب الظلم والإذلال . أنت تعلمين قيمة الوصية المقدسة في جهادنا . إن من يملكها هو الذي يستطيع أن يحكم . وما دامت الوصية في يد الملك أرتبان فسيظل هو الملك الشرعي للبلاد في نظر سكان الأقاليم البعيدة التي لم تبلغها دعوة أردشير ، ولم تشتعل فيها بعد نار الثورة . إن في مقدور أردشير أن يهاجم الملك ويطرده من مدينة هرمز . ولكن الملك قد يجمع فلول جيشه المهزوم ويرابط في مدينة أخرى ، ثم يكر يوماً علينا مستنداً إلى حقه الشرعي في الحكم بوجود الوصية المقدسة في يده . فكيف يستطيع أردشير أن يحطم نفوذ الملك المستبد ويحرر المقاطعات الإيرانية البعيدة كلها وهو لا يملك تلك الوصية الروحية المقدسة التي تمنحه حق الحكم وفقاً لتقاليدنا ؟ . . . إن أهل هذه المدينة ، مدينة كرمان ، قد أيدوا ثورة أردشير لفرط ما أصابهم من ذل واضطهاد على يد الملك أرتبان . ولكن الجماهير المتعصبة المحافظة في الأقاليم البعيدة لن تناصر أردشير إلا إذا باركته الكهنة وظهر أمام الشعب وبيده الوصية المقدسة . فإذا عجز أردشير عن امتلاك الوصية ، فشعوب الأقاليم قد تخذله وقد تعتقد أن الآلهة تعانده وتبارك خصمه أرتبان حامل الوصية . فزوجك يا أمسترس يوشك أن يخنق ثورتنا ، ويهدم كل ما بنيناه ، ويردنا إلى حكم الملك المستبد عدونا . ولقد جئت إليك يا ابنتي بعد أن استوثقت من جريمة زوجك ، وبعد أن علم بها الزعيم أردشير ، وذاع أمرها بين أعضاء المجلس الثوري كله . . . لم أذق طعم النوم ليلة أمس . فحاولت هذا الصباح أن أدفن همي في فني ، وأن أتناسى معرتي بضع ساعات ريثما تستيقظين . ولقد خطر لي أن أؤدي الواجب بنفسي ، ولا أصارحك بالحقيقة أو أعتمد في شيء عليك . ولكني فكرت في أني

شيخ فى السبعين ، وأن الخائن هو زوجك ، وأنك صاحبة الحق عليه قبلى ، وأنك امرأة فى وسعك أن تنجحى حيث يمكن أن أفشل أنا . فجئت لأتحدث إليك ، لأراك ، لأرى هل أنت يا أمسترس خليقة بالانتساب إلى أبيك ، وإلى هذه الأرض الطاهرة التى حملتك ! . . .

فامتقع وجه المرأة ، وبدت كأنها لم تفهم . ثم بسطت يديها فى حيرة وابتئاس وقالت :

— وماذا فى وسعى أن أفعل ؟ . . .

فقال بهزاد بصوت واضح المخارج باتر النبرات :

— لابد لنا من الاستيلاء على الوصية المقدسة كى نعزز ثورتنا ، ونستميل شعوب الأقاليم النائية ، ونستأنف هجومنا على جيش الملك أرتبان المرابط فى مدينة هرمز . ولقد فر زوجك إلى هرمز . فعليك أنت أن تلحق به وأن تتوسلى بجمالك ودهائك لمعرفة المكان الذى أخفى فيه زوجك الوصية المقدسة . ومتى تم لك ذلك فاتصلى على الفور بالقائد « نار باس » وكاشفيه بما اهتديت إليه ، فهو من أنصارنا ، وهو عين الزعيم أردشير فى البلاط الجديد الذى أنشأه الملك أرتبان فى مدينة هرمز . وهو لن يتردد فى جمع رجاله المخلصين ومغافلة أعدائنا ، والاستيلاء على الوصية وحملها إلينا . وعندئذ يصبح فى وسع زعيمنا أردشير ، وقد أيقن من امتلاكه الوصية ومن قدرته على اجتذاب شعوب الأقاليم ، أن يصدر أمره إلى جيش الثورة بالهجوم على مدينة هرمز وخلع الملك أرتبان ، وتحرير البلاد الإيرانية كلها من نير الطاغية المستبد . هذا هو الواجب المفروض عليك اليوم يا ابنتى !

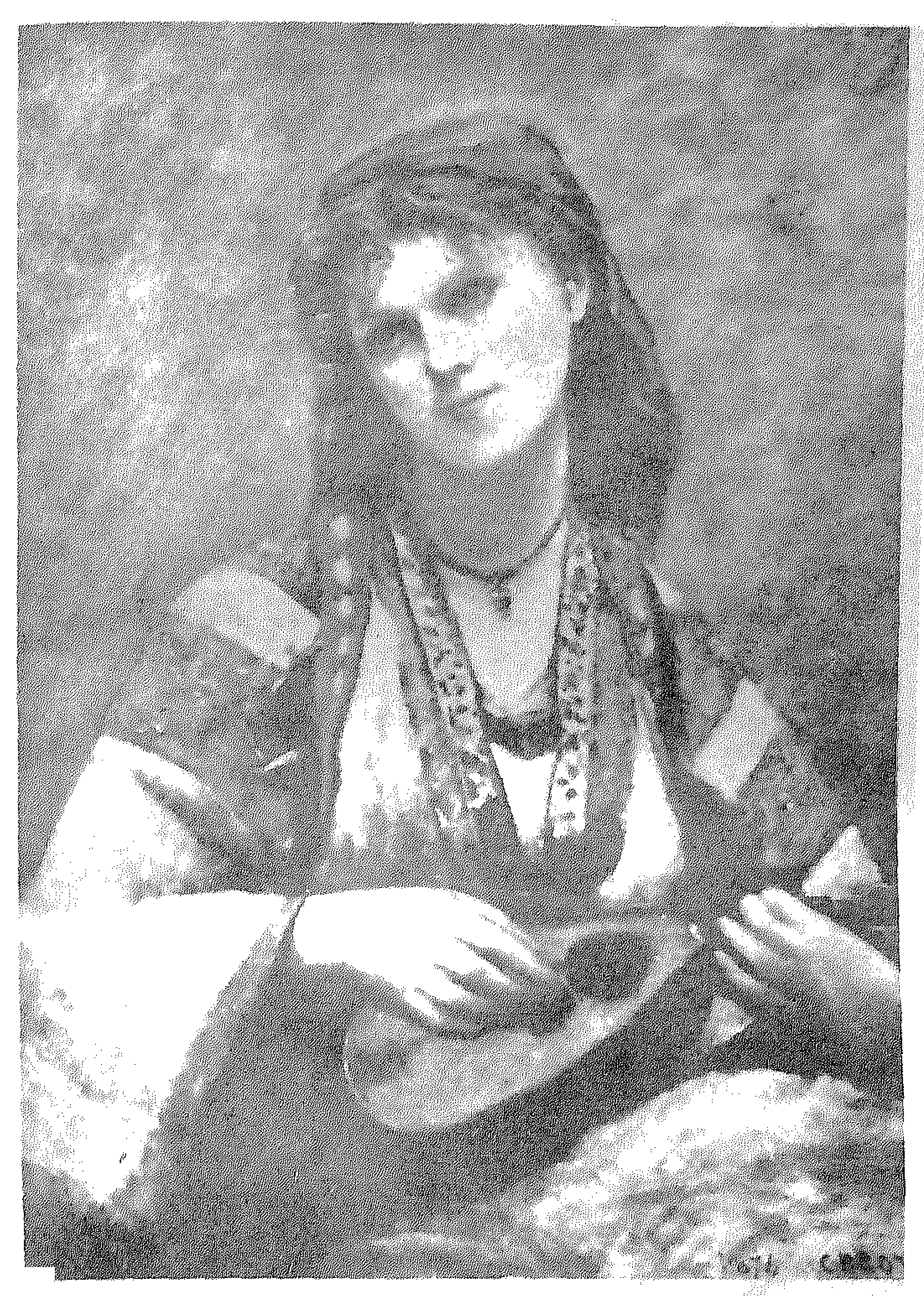
فارتعدت فرائص أمسترس وقالت :

— وزوجى ؟ . . . إن الزعيم لن يرحم بعد النصر أعداءه ، وهو سيأمر ولا ريب بقتل زوجى . أليس كذلك ؟ . . .

فأجاب بهزاد :



« القارئة الصغيرة » — للفنان كورو — مجموعة أوسكار رينهارت ڤينترتور



« كريستين نيلسون أو الغجرية تعزف على الماندولين » — للفنان كورو
متحف سان پاولو.

ـ لن يكون الزعيم زعيماً إن هو استضعف وترفق بخائن يستحق العقاب .

فانفجرت عواطف أمسترس ، وصاحت فى صرخات متمطعة مستهولة :

ـ لن أسافر أبداً . . . أبداً . . . لن أقتل زوجى بيدى ! . . . إنه ليس فقط زوجى . إنه حبيبى . إنه كل شىء لى . لم أعرف رجلاً سواه . لقد تزوجته وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى . أخذنى طفلة فربانى . كنت يتيمة الأم فحبانى عطف الوالدة وحنانها . . . إنه زوجى وأمى وأبى . وأما أنت فلو انك كنت حقاً والدى لما جئت إلى هنا تطلب إلى أن أقضى بنفسى على نفسى . لن أسافر ، بل سأسافر . . . الليلة . . . الليلة . . . ولكن لا لأغدر بزوجى ، بل لأحذره منكم ، وأكون إلى جواره ، وأقاسمه حظه ، هزيمة أم نصراً ، شقاء أم سعادة ، موتاً أم حياة . أما أنت فإذا بلغت عنى قبل سفرى ، إذا وشيت بى ، فلن يظفر رجال الثورة منى إلا بجثة هامدة . فانبئهم بعزمى إن شئت . أقتل ابنتك إن شئت . هذا ما سيجلبه عليك إخلاصك الأعمى لأردشير !

وصمتت والشرر يقدح من عينيها فرمقها الفنان بنظرة ملؤها الأسف المرير وتمزق . ولكنه أسرع وكبح نفسه وسيطر جهده على عواطفه ، وحنى رأسه فجأة وابتسم . ابتسم ابتسامة غريبة ، ابتسامة خاطفة ، ابتسامة لم تلمح ابنته مقدار اللوعة التى شاعت فيها ، ولا مقدار العزة التى ارتسمت عليها ، ولا مبلغ العزم الراسخ المستميت الذى فاض منها . فعجبت له أمسترس كيف لم يغضب ، وكيف لم يسخط ، وكيف لم يثر ، وأوجست منه وحدقت فيه . بيد أنه ظل محنى الرأس جامداً كأنما هو قد أحس أنه تهور وطلب المستحيل . فتفرست فيه المرأة أيضاً وقالت :

ـ ما بالك لا تتكلم ؟ . . .

فأجاب بصوت شارد :

ـ يخيل إلىّ أنى مجنون . . .

فهتفت المرأة :

ـ أنت تراجع نفسك . أنت تقدر الآن ولا ريب فظاعة مطلبك .

فصرخ :

ـ أنا إنما أفكر فيك . فيك وحدك . إن الزعيم لا يمكن أن يتجاوز عن عصيانك لأنه هو الذى أشار علىّ بأن أعهد بتلك المهمة إليك . هذه هى الحقيقة . فماذا أفعل لو اعتبرك الزعيم خائنة كزوجك ؟ ماذا أفعل لو قتلوك ؟ كيف يمكن أن أعيش لو فقدتك ؟ ماذا يمكن أن يحل بى ؟ . . . آه ! لقد شوشوا عقلى ، وأفسدوا طبيعتى وأوشكوا أن يستأصلوا منى شعور الأبوة الذى فيه إنسانيتى . نعم . أنا مجنون . وما طلبته منك يا أمسترس يفوق طاقة البشر . . .

فتعلقت به وصاحت :

ـ ألم أقل لك ؟ . . .

فتمتم :

ـ كان يجب ألا أدخل المجلس الثورى أبداً . . . أنت على حق . . . أنا رجل فن وخيال وشعر . فمالى والسياسة التى التهمت جزءاً ثميناً من فكرى ووقتى كان أحق بهما فنى الثابت الباقى . . . لا . لن أجن فى نهاية عمرى . لن أدعو إلى سفك الدم يا أمسترس . . .

فقالت :

ـ إذن فانسحب من المجلس الثورى واتبعنى . . .

فضمها إلى صدره وهتف :

ـ سأفعل . . .

فابتهجت المرأة بتحوله . ولكنه قطب حاجبيه وأشاح بوجهه . فأرابها قلقه واضطرابه . فعادت وأوجست منه . وهجس فى روعها أنه قد يكون

غير صادق وأنه يخدعها . فاستشعر هو إحساسها وأسرع وصوب إليها عينيه الهادئتين النادمتين، وظل يقاوم فى شجاعة نظراتها الثاقبة حتى أجبرها على أن تغض من بصرها وترى فيه الشخصية الجديدة التى أراد أن يتقمصها . . .

وأثر فيها هدوؤه . ولأنها كانت تحب زوجها فقد اقتنعت فى النهاية بأنها أقنعت والدها وأنه قد انضم فعلاً إلى صفها . فاحتضنته بغتة وقالت :

— ابق الآن هنا . امكث معى . بجوارى . سأعد معدات السفر وأرحل الليلة . لقد استطاع زوجى عندما كان رئيساً للكهنة ومناصراً للزعيم أردشير ، أن يحصل منه على إذن باجتياز الحدود عساه أن يلحق يوماً بالأنصار الذين أرسل بهم الزعيم عيوناً وجواسيس على الملك أرتبان . ولكن زوجى فر من طريق الجبال وأبقى الإذن معى . فأنا سأجتاز الحدود آمنة مطمئنة . فلا تخش أنت على حياتى . ومتى غادرت هذه المدينة وسألوك عنى ، قل لهم انك جئت لزيارتى فلم تجدنى فى قصرى . أما جوارى فلن تجسر إحداهن على مصارحة إنسان بأنك كنت الساعة هنا . . .

فلاطف الشيخ خدها بأنامله وقال :

— ما عرفت قبل اليوم مبلغ حبى لك وقيمة حياتك عندى . سأعمل بما قلت . لن أتصل بالزعيم أو بمجلس الثورة إلا فى ظهر الغد وبعد أن تكونى أنت قد غادرت المدينة واجتزت الحدود . . .

فقالت وعيناها تلمعان:

— وأنت ؟ . . .

فأجاب وهو ساهم :

— سأتبعك . . . سأعرف كيف أغافلهم جميعاً وألحق بك بعد أيام . . .

فأرادت أن تعانقه وتقبله . ولكنه نحاها عنه وقال :

ــ يجب أن أمضى . يجب أن أكون فى بيتى كى لا تحوم حولى أية شبهة فأتهم بالتواطؤ معك ، فأقع تحت الرقابة وأعجز عن اللحاق بك . فدعنى أذهب واستأنف عملى الفنى ، وانطلقى أنت إلى زوجك ، ولتحرسك الآلهة . . .

وكاد أن يترنح ويسقط ويفتضح . ولكنه غالب نفسه ما استطاع ، وأدنى ابنته منه وقبلها فى جبينها قبلة أبوية خالصة . فعانقته عناقاً طويلاً . بيد أنه أفلت منها فى رفق ، وقبلها أيضاً ليمعن فى تضليلها . ثم اختطف عباءته وعصاه . واتجه نحو الباب مرفوع الرأس ، وطيد الخطى ، ثابتاً عازماً مستبسلاً ، لا تأخذ العين منه غير قدمين هزيلتين تحملان كومة راسخة من عظام . . .

* * *

ولم يكد بهزاد يغادر قصر ابنته ويرى الأفق الواسع والشمس الضاحكة والشارع العريض ، حتى تنفس ملء رئتيه ، ثم تحول ونفذ لى زقاق مقفر . ثم تحسس موضع الجيب من قميصه ، وأخرج ورقة زرقاء مطوية لفها فى منديله وعقده عليها ، ثم دس المنديل فى جيب آخر بعيد الغور وتمنطق عليه بحزامه الأحمر ، ومرق من الزقاق ، ويمم وجهه شطر الفندق الذى يختلف إليه أصدقاؤه ومريدوه .

وسار مشتعل العينين ، مضموم القبضتين ، محموم الخطى ، يلفح النسيم لحيته الطويلة الكثة ، وترفرف حوله أطراف عباءته الخضراء ، فتحيله لى شبه طائر هرم مكدود يأبى مع ذلك إلا أن يبعث شبابه ، وينشر جناحيه ، ويضرب ما استطاع فى أجواز الفضاء .

وعرفه الناس كالعادة ، وأفسحوا له الطريق . وشاهده جمع من الشباب الوطنيين فلوحوا له بأذرعهم وحيوه . أما هو فكان مشغولاً عن السابلة بنفسه . كان مستغرقاً فى التأمل والتفكير . كان يتقدم وركبتاه

لا تقويان على حمله . كان ينظر إلى الناس فى حب وشفقة وخوف ويناجى ربه ويقول :

ــ أيها الرب الأعلى ، يا « أورمازد » العظيم ، فاطر السموات والأرض ، أعنى على شيخوختى ، وهبنى قوة الصبر والثبات واحتمال الألم . وكما كنت تسرع لنجدتى وتقف خلفى ، وتمد عقلى وأصابعى بسيل من روحك وأنا مكب على عملى الفنى ، كذلك ألتمس إليك أن تكون الساعة بقربى وأنا مقدم على المغامرة بحياتى . قد أموت أيها الرب الأعلى . ولكنى لا أريد أن أموت قبل أن أؤدى واجبى . أنا الذى سأنهض بما أبت أن تقوم به المرأة الخائنة التى هى وأسفاه ابنتى . أنا الذى يجب أن أسافر وانتزع السر من زوجها وأمتلك الوصية وأنقذ بلادى . وإذن فلا مفر لى من الكذب . . . لا مفر لى من الخداع . . . نعم . . . سأكذب . . . سأخدع . . . وستكون هذه أول مرة فى حياتى أتقمص فيها أمام الناس شخصية غير شخصيتى ، وأخاطبهم بلسان غير لسانى ، وأعرب لهم عن عواطف وأفكار بغيضة وغريبة عن قلبى وعقلى . فهبنى يا إلهى قوة احتمال الألم ، واشدد أزرى . لا تهلكنى . لا تتخل عنى . إنك معى . أشعر أنك معى . وسأمضى فى طريق العذاب حتى آخره ! . . .

ومضى لا يلوى على شىء وقد تلهب عزمه وتصلبت أعضاؤه وسرت فى بدنه الواهن إرادة لا تقاوم .

ولما بلغ الفندق استقبله أصدقاؤه بالتهليل ، وأحاطوه بشتى ضروب التجلة والإكرام ، وأجلسوه فى صدر المكان ، وتباروا فى أيهم يسبق الآخر ويحظى بلثم يده .

وجلس بهزاد صامتاً ، وجعل ينقل الطرف فى الحاضرين ، حتى وقع بصره على فتى قصير القامة أسود العينين . فأومأ إليه بهزاد إيماءة معنوية . فنهض الفتى من فوره وتسلل إلى الخارج دون أن يشعر به أحد .

وانقضت فترات فى التحدث عن الثورة ومستقبل البلاد ومبلغ القوى التى أعدها الملك أرتبان فى هرمز ، وموعد زحف الزعيم أردشير إلى تلك المدينة . وكان بهزاد يجيب على الأسئلة التى توجه إليه بكلمات جافة ومقتضبة تنتهى دائماً بهذه العبارة :

ـ الزحف مستحيل قبل أن يعثر رجالنا على الوصية المقدسة .

وكان فى الآونة بعد الأخرى يتحدث فى ضجر ويهز كتفيه كالمستخف اليائس ويردد :

ـ إن عدونا أرتبان رجل ذكى . . . رجل قوى . . .

فيصمت أصدقاؤه ، ويتلفت بعضهم إلى البعض الأخر ، ويحدقون إليه مبهوتين . غير أنه كان لا يحفل بهم ويمضى فى حديثه عن الملك الطاغية بإعجاب متحمس مستور ولهجة غامضة لا عهد لأحد بها .

وهكذا شعر الجميع أن شيئاً فى الشيخ بهزاد قد تغير . ولكن أحداً منهم لم يرتب فى عواطفه ولم يشك فى إخلاصه لأنه كان حتى هذه اللحظة فوق جميع الشبهات .

ولما عاد الفتى الأسود العينين ، القصير القامة ، وتبادل وبهزاد نفس النظرة المعنوية ، ثم انصرف للمرة الثانية كأن عليه واجباً عاجلاً يجب أن يؤديه ، أعرب الشيخ لرفاقه عن رغبته فى التريض . فخرج الجميع من الفندق ، وبدل أن يسلكوا طريق الضواحى ، أشار عليهم بهزاد بالاتجاه صوب الطريق العام .

وكانت الشمس متوهجة ، والحر شديداً ، وفى السماء مع ذلك بعض سحب خفيفة كأنها غلائل من حرير . فتباطأ بهزاد فى مشيته ، وجعل يتأمل جمال السحب ويتطلع إلى الأفق الساطع . فلمح طائراً يتسنم غارب ربوة عالية ثم يحلق فى الأفق صعداً ويختفى . فعرته هزة كبرياء وضم قبضته على عصاه ، وأحس أن قوة خارقة قد ملكته . فتوقف عن السير وتفرس

فيمن حواه . وفجأة أبرقت عيناه وصاح محتداً كمن أطال التفكير فى أمر ثم اهتدى إلى حقيقته :

– كلا . إن الظلم أحب إلىّ من الفوضى . وليس شك فى أن الملك أرتبان يظلم الشعب ولكنه يعرف على الأقل كيف يحكم ويقر النظام فى المملكة . أما أردشير فحديث العهد بالحكم ، ولو ألقينا إليه غداً مقاليد الأمور فسوف يضطرب ولا شك حبل الأمن وتعم البلاد الفوضى . . .

فنظر إليه أصدقاؤه مذهولين ، ولكنه استطرد :

– لقد فكرت طويلاً وانتهيت إلى ما اطمأن إليه ضميرى . يجب أن يحل مجلس الثورة ، ويجب أن نعدل عن مواصلة الحرب . الوصية المقدسة فى يد أرتبان ، والشعب فى المقاطعات النائية لابد أن يؤيده ، وهو قوى بجيشه المنظم وسوف يقهرنا . فالحكمة تقضى بأن نستدرجه للتفاهم مع زعمائنا لا أن نقاتله فنستهدف لخطر الهزيمة ونتعرض لانتقام الشعب .

فظل أصدقاء بهزاد يتطلعون إليه وهم فى شك مما يسمعون ، لا يصدقون ذانهم وعيونهم ، ولا يستطيعون أن يتصوروا أن هذا الرجل الذى يطعنهم الآن فى مبادئهم وآمالهم وروح كفاحهم ، هو الرجل نفسه الذى كان بالأمس علماً عليها ، يذود عنها بعقله وقلبه ولسانه ، ويبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال .

وخيل إلى بعضهم أن الخرف قد خالط عقل الشيخ ، واعتقد البعض الأخر أنه قد جن . ولكن بهزاد استأنف حديثه فى منطق محكم وأساوب بليغ أقنعا الجميع أنه يتكلم عن وعى لا عن جنون . فتقطبت جباههم ، وشحبت وجوههم ، وارتسمت عليها علائم صرامة مستنكرة سرعان ما استحالت إلى سخط .

ولما ألفوه يمعن فى تجريح أردشير ويغرق فى الثناء على الملك المستبد ويوغل فى الدعوة إلى الهزيمة ، انطلقوا يصيحون فى وجهه ، ويخطئونه ،

ويعاملونه معاملة الند للند ، ويحاسبونه على كل فكرة وكل كلمة وكل إشارة .

واحتدم نقاشهم وتعالت صيحاتهم وغص الطريق بالناس . ولكن بهزاد لم يكترث وظل ثابتاً راسخاً يرد على هذا ويحاول أن يفحم ذاك ، ويجبه الجميع ويتحداهم فى صلابة غريبة وإصرار عجيب .

وزاد عناده سخطهم ، وتطور السخط إلى حقد ، وانقلب الحقد فى صدورهم إلى رغبة فى المعاقبة والتنكيل . فأسرع واحد منهم واختطف مقعداً من أحد الحوانيت واعتلاه وصاح فى الجمهور المحتشد :

ــ إن بهزاد يسب أزدشير . . . بهزاد يطلب عقد الصلح مع الطاغية . . . بهزاد يدعو إلى الهزيمة . . . عاقبوا الخائن . . . اقتصوا من المجرم ! . . .

وهبط الرجل إلى الأرض ، واندس بين الجموع الحانقة ، فاضطربت وتدافعت واصطفقت كالموج ، واندفعت نحو بهزاد .

وأحس الشيخ كأن نطاقاً من حديد يضرب حوله ، وكأن سوراً من الأجساد الآدمية يقوم بغتة فى وجهه ، وكأن ألف ذراع توشك أن تنقض عليه وتمزقه . فحجب رأسه بيده اليسرى ، وهز بالأخرى عصاه ليستند إليها . فظن البعض أنه يهم بالدفاع عن نفسه . فهالتهم وقاحته ، وأسرع واحد منهم وجرده من العصا وانهال بها ضرباً على كتفيه ورأسه .

وإذ ذاك ، وفجأة ، وعلى غير انتظار ، أقبل جمع كبير من الشرطة ، وشرعوا يفرقون الناس ، ويجاهدون لإقصائهم عن الشيخ . . . ولكن الجماهير التى كان قد أصابها شبه خبل ، تملصت من الشرطة وغافلتهم ، وتدفقت على بهزاد فى صفين متراصين يحاولان الإطباق عليه .

وتقدم الشيخ فى طريق الشوك والعذاب ، مشعث الشعر ، جاحظ العينين ، ممزق الثياب ، ينزف من رأسه الدم . فبدأوا يضحكون لمنظره ،

ويعيرونه بحدبته ، ويسخرون من شيبه ، ويتوعدونه بالرجم وبإحراق داره وإلقاء صوره ورسومه طعمة للنار .

ولما سار أيضاً بضع خطوات ، بصقوا فى وجهه ، وسبوه فى عرضه ، وألقوا عليه حفنات من تراب . ولما أبصروه يحث الخطى فى طلب النجاة ، عز عليهم أن يفلت منهم . فاشتد عجيجهم ، واقتحموا الحاجز الذى أقامه الشرطة ، وجذبوا بهزاد من أطراف عباءته ، وضربوه بقبضاتهم ، وركلوه بأرجلهم ، فترنح الشيخ وتهاوى وانهار على الأرض .

وعند ئذ التحم الشرطة بالشعب ، فثارت ثائرة الجماهير وأبت إلا أن تقتل بهزاد . فشرعت تجمع الحجارة من الشارع وتقذف بها رجال الشرطة والشيخ الصريع وهى تصرخ :

— إنه خائن . . . وابنته أيضاً خائنة . . . إنها عشيقة الملك الظالم . . . إنها خائنة وبغى . . . لقد باع ابنته للملك أرتبان وإلا لما وعد الملك زوجها بأن يعينه وزيراً ! . . . اقتلوه . . .

واختلط الحابل بالنابل ، وكادت جموع الشعب أن تتغلب على الشرطة وتفتك ببهزاد . ولكن فرقة من الفرسان أقبلت بغتة ، وشقت زحمة الجماهير ، وشطرتها أجزاء وبعثرتها . فدب الرعب فى قلوب أفرادها ، فتفرقوا ناقمين متوعدين .

وفى تلك اللحظة ، وبعد أن جلت الجماهير عن شارع وارتد إليه النظام ، شوهدت أمسترس محلولة الشعر ، زائغة العينين ، تعدو كمعتوهة ، وتخترق نطاق الجند ، وتلقى بنفسها على أبيها الذى كان أشبه بجثة فارقتها الحياة .

* * *

وفتح بهزاد عينيه ، فأبصر نفسه فى مخدع ابنته ممدداً على فراشها وهى واقفة بجواره ترنوا إليه بنظرة ملؤها الكمد والشفقة .

وانتفض وتذكر ما وقع . تمثلت له أشباح أصدقائه ، والوجوه المتشنجة الحانقة التى أبغضته ، والأفواه الملتوية القاسية التى لعنته ، والشاب الذى كان أول من اجترأ وضربه . فسرت فى بدنه قشعريرة ، وخيل إليه أن الجموع الساخطة ما تزال تزحف إليه . فأرسل صيحة جزع ورعب ، وتعلق بابنته وهو يلهث . فتفطر قلب أمسترس حزناً عليه ، وجلست على الفراش بجواره ، وأسندت رأسه إلى ذراعها ، وطفقت تهدهده وهى تكبح ما استطاعت من سورة دهشتها وغضبها واستنكارها . . .

وروعه هذا التدليل ، وخشى أن يكون قد أصيب إصابات بالغة تحول بينه وبين تأدية مهمته ويقتضى الشفاء منها وقتاً طويلاً . فتحسس بدنه ، ثم لمس رأسه المعصوب ، ثم استجمع قواه واستوى على الفراش . فألفى نفسه سليماً إلا من الجرح الذى يثقل هامته ، ومن الخدوش التى تحرق وجهه ، ومن الرضوض التى ترهقه وتنوء بها أعضاؤه .

وهم بترك الفراش . فتشبثت به ابنته ولكنه أقصاها عنه ، ثم نهض وجعل يذرع الحجرة ، شاداً عصبه ، مروضاً عضله ، مكافحاً ضعفه ، مطمئناً إلى أن عين الله الساهرة لم تنصرف عنه ، وأنه لم يزل حتى الساعة على قيد الحياة .

وتذكر الورقة المطوية الزرقاء . فاضطرب وتحسس جيبه . فألفاها قابعة فى غوره . فاستضاء محياه ، وزايلت تقاطيعه مسحة الخور والألم . فجلس على إحدى الوسائد ، وتربع وهو يتلفت وسمعه المرهف ينصت إلى كل حركة تنبعث من الباب . . . وعندئذ دنت منه أمسترس وقالت وبوارق الدهش والحنق تشع من عينيها :

— لماذا فعلت ما فعلت ؟ . . . أفقدت صوابك ؟ . . . أنت الشيخ الضعيف تتحدى الشعب ، وتحمل على الزعيم ، وتتحمل العذاب ، وتستهدف لخطر الموت ؟ . . . كيف أقدمت على هذا ؟ . . . ألم تفكر

فى أنه لن يكون فى وسعى الآن أن أسافر ؟ . . . كيف يمكننى أن أفر بعد أن أصبحت أنت أمام الجميع خائناً . لقد جاهرت أنت بالخيانة وعصيت أنا أمر الزعيم . فالزعيم لابد أن يأمر بإعدامك وقتلى . ألم تفكر فى هذا ، ألم تفكر فى ابنتك الوحيدة التى كنت ترتعد خوفاً على حياتها ؟ .

فصاح :

ـ لم أفكر إلا فى مصلحة الشعب وحدها . لم يكن فى مقدورى أن أترك الشعب فى ضلاله . أنا لست بالرجل الذى يعتنق مذهباً ثم يخفيه . لم أستطع وقد تحولت عن معتقدى القديم إلا أن أجهر بمعتقدى الجديد ولو مت فى هذا السبيل وكنت السبب فى قتل ابنتى !

فصرخت أمسترس :

ـ أإلى هذا الحد أصبحت تستهين بتضحية نفسك وابنتك ؟ . . .

فقال :

ـ أتخشين على حياتك أم على حياتى ؟ . . . ألم أجهر أنا بالمبادئ التى تؤمنين أنت بها ؟ . . . ماذا يهم لو متنا معاً فى سبيلها ؟ . . . ماذا يهم او قتلوك وقتلونى ؟ . . . ألست أنت التى أيقظتنى وهديتنى ؟ . . .

فتراجعت المرأة خطوة ، ثم ارتمت عليه ، ثم غرست فيه نظراتها ، ثم قالت فى صوت غائر ساكن عجيب :

ـ وإذا كنت أنا قد تغيرت ؟ . . .

فحملق فيها ولم يفهم . فقالت :

ـ أنا التى كنت عمياء لا أنت . ولكنى أبصر الآن وأرتعد لأنى جعلت منك أعمى !

فثبت فيها عينيه الحادتين الحذرتين مستطلعاً دخيلة نفسها . بيد أنها لم تحفل به ومضت تصرخ :

ـ أتدرى ما الذى وقع بعد أن هبطت أنا إلى الشارع ورأيتك مثخناً

بالجراح وأمرت خدمى بأن يحملوك إلى هنا ؟ . . . عادت الجماهير وشقت نطاق الجند ولحقت بى . . . بصقوا فى وجهى أنا أيضاً . ركلونى بأقدامهم . مزقوا ثوبى . كان الرجال يصيحون « هذه بنت الخائن ! » وكانت النساء تجأر « اقتلوا البغى عشيقة الملك أرتبان ! . . . » . وهنا ، هنا فى بيتى ، أبصرت الوجوه تشيح عنى . لمحت بارقة الاحتقار تلمع فى عيون عبيدى . رأيت ابتسامة الزراية تومض على شفاه جوارى . الكل اعتقدوا أنى أغريتك بالتمرد على أردشير لأنى بعت عرضى للملك أرتبان ! أجل . . . أصبحت فى نظر الجميع بغياً استخدمها زوجها لأطماعه ، واستخدمت هى والدها لتحقيق تلك الأطماع . ما شعرت أبداً بمثل ما شعرت به منذ ساعات ، أنا المرأة التى وضعت سعادتى كلها فى حب زوجى ، وكان مجدى فى بياض صفحتى وعزة عفتى وكبرياء نفسى . لم أطق أن أرى الشعب كله يمزقنى ويلدغنى بعارين ، عار الزنا وعار المروق . لم أطق أن أكون فى نظرهم تلك البغى التى تبيع جسدها ووطنها لأنها تحب رجلاً وإن كان هذا الرجل هو زوجها . شعرت أن حبى المفرط لزوجى هو الذى أفقدنى صوابى ، وهو الذى أعمى بصيرتى ، وهو الذى دفعنى إلى إفساد عقيدة أبى ، والتنكر لبلادى ، وخيانة شعبها التاعس المنكود . ولم أكن قد عرفت الشعب . لم أكن قد اتصلت بالشعب . فلما أبصرته يثور عليك تلك الثورة العارمة ويهم بأن يفتك بك ويبطش أيضاً بى ، أدركت مبلغ ما احتمل بالأمس من عذاب وظلم ، ومبلغ ما يتقد اليوم فى صدره من حرص على المبدأ وذود عن الكرامة وإيمان بالحرية وعزم على الخلاص . فسرت وطنيته فى عروقى ، وتغلغل إيمانه فى دمى ، ولم أستطع أن أتصور أن أخونه أنا أيضاً كما خانه أبى . فأبغضت نفسى ، وأبغضت حبى ، وأبغضت زوجى ، وكرهت أن تكون أنت ، أنت يا بهزاد العظيم والذى ! . . .

فبهت الشيخ ورمقها بنظرة فاحصة ، ثم غافلها وطفق يتفرس فيها :

موجساً منها ، مرتاباً فى أن تكون قد نصبت له شركاً تحاول إيقاعه فيه . وبعد أن كان يظنها امرأة ساذجة قاصرة العقل والذكاء ، بات يعتقد أنها داهية تمثل أمامه دوراً وتصطنع العواطف الوطنية اصطناعاً ، كى تضلله وتضلل الزعيم ، وتحرص على حياتها ، وتعرف فى الوقت نفسه حقيقة ما يدبره والدها فتنتهز فرصة ثانية للفرار ثم تحبط تدبير بهزاد بأن تكشفه لزوجها .

وتدافعت هذه الخواطر فى ذهن الشيخ . فظل يتفرس فى ابنته وهو مستهول وذاهل . ولكن المرأة لم تضطرب ولم تتغير ، بل أمسكت به فى عزم وقالت :

ــ يجب أن تتوب إلى رشدك . يجب أن تعود كما كنت ! . . .

فدفعها عنه فى شموخ وقال :

ــ لن أتحول عن معتقدى الجديد وفى صدرى نفس يتردد .

فصاحت به وقد نفد صبرها :

ــ ألا أن العجب ليأخذ مأخذه منى تجاه جنونك . أتأتى إلىّ هذا الصباح موقداً فى صدرى شعلة الوطنية ، مضرماً فى قلبى هوى الحرية ، مثيراً كيانى كله ضد الجور والظلم ، فلما اعترضك تسرع وتأخذ برأيى ، ولما ارتد إلى سابق تعاليمك تذهب أنت فى تحطيمها إلى أبعد مما كنت أذهب إليه أنا ؟ ! . . . إنى لأكاد أسجل عليك تعصبا أخرق عنيداً هو شر من الجنون . أين إيمانك القديم ؟ . . . أين مبدؤك الراسخ ؟ . . . استفق . . . تيقظ ! . . . لا تطلب الموت فى العار ، أنكر نزعتك الجديدة ، واستغفر الزعيم عما بدر منك . . .

فهتف بهزاد :

ــ بل سأذهب من فورى إليه . إلى مجلس الثورة . وسأجهر أمام أعضائه بما بت أعتقد أنه الحق . لابد أن أخرج . . .

وخطا خطوة نحو الباب . فعادت إليه أمسرس وتشبثت به وصاحت :

ــ لن أدعك تسقط أيضاً . لن أطعن فى كرامتى مرتين . سأنقذك من نفسك ، وأنقذ وطنى من زوجى الخائن ومنك . لن تخرج ! . . .

وأطلقت ضحكة وحشية هادرة وأردفت وهى تركض وتغلق الأبواب :

ــ أنت أسيرى ومكانك أصبح هنا ! . . .

فنظر إليها بهزاد حائراً مشدوهاً . كانت عينه تجاهد لتأخذ منها ولو لمحة عابرة تنم عن الدهاء ونية الغدر . ولكنها كانت مشبوبة الحس فى صراحتها ، مستعرة العاطفة فى كلماتها ، قاطعة العزم فى حركاتها وسكناتها ، فلم يسعه إلا أن يسلم بأنها صادقة . فأراد مع ذلك أن يقسو عليها أيضاً ويمتحنها فردد :

ــ طريقاً يا أمسترس ، ودعينى أذهب ، فلعلى أقنع المجلس برأيى ، فأجنب الشعب ويلات الحرب وأنقذ بلادى وحياة زوجك .

فصرخت وعيناها تبرقان :

ــ حياة زوجى وموته فى يدى لا فى يدك أنت . ولقد عزمت أن أقضى عليه كى لا يقال أنى قد بعت عرضى لأحقق مطامعه وأخون بلادى . كبريائى أصبحت أقوى من حبى . عارك الذى رأيته بعينى ألهب إحساسى بعارى وقتل الحب والرحمة فى نفسى . . .

وأردفت وهى تضحك ضحكتها الوحشية الجشاء :

ــ أتظن أنى احتجزتك هنا لأنى أخشى أن يؤثر كلامك فى أعضاء المجلس الثورى ؟ . . . كلا . إنما أنا احتجزتك هنا إنقاذاً للبقية الباقية من كرامتك وكرامتى . أما أن تعتقد أن فى مقدورك أن تجذب إليك أعضاء المجلس وتدفعهم إلى عقد صلح شائن يتوج بالنصر هامة الملك المستبد ، فهذا منك وهم يزين لك المحال . . . بل هذا قد بات اليوم ضرباً من المحال . أتدرى لماذا ؟ . . . لأن النصر أصبح لنا . . . أتسمع ؟ . . . اصبح لنا . . . بل فى يدى أنا ! . . .

وجذبته من ذراعه وهو مبهوت وهتفت :

ـ تعال . . . تعال انظر . . .

واندفعت صوب مخدعها واتجهت نحو خزانة قائمة فى إحدى زواياها ، وفتحت بابها ورددت :

ـ انظر . . .

فحملق بهزاد فى جوف الخزانة ، وأحس كأنما قد ضربته صاعقة . ثم انفتحت عيناه وتلألأ فيهما فرح جنونى ، وسقط جاثياً على الأرض إذ أبصر الوصية المقدسة ، الوصية الروحية الحافزة ، تنهض فى إطارها المكسو بالذهب ، وتسطع أشعتها فى جوانب الحجرة كأنما قد أشرقت عليها شمس . فتطلع إلى ابنته وهو يرتجف من فرعه إلى قدمه . فابتسمت المرأة وأوصدت الخزانة وقالت :

ـ هذا هو المكان الذى أخفى فيه زوجى الوصية التى ننشدها لاستئناف كفاحنا . . . أخفاها عندى ، فى مخدعى ، يقيناً منه أن كائناً من كان لن يجسر على اقتحام حرم امرأة ، وإلا استهدف للعنة الآلهة ، وأمر الكهنة بإعدامه كما تقضى بذلك تقاليدنا . ولقد أبقى زوجى الوصية هنا ، فى مدينتنا ، ثقة منه بأن الملك أرتبان لابد أن يسرع ويهاجمنا ، مستعيناً بشعوب الأقاليم ، ومعززاً سلطانه بوجود الوصية المقدسة فى يده ، فيهزم جيشنا ، ويتوج للمرة الثانية ملكاً علينا فى نفس هذه المدينة التى تعد مركز الثورة ومعقل الزعيم أردشير ! . . .

وصمتت وهى تلهث ، ثم قالت متحدية :

ـ فماذا يمكنك أن تفعل الآن ؟ . . . الشعلة فى أيدينا ، والأقاليم كلها ستتبعنا ، والقوة الروحية أصبحت لزعيم الشعب أردشير . . . فاذهب أنت إلى مجلس الثورة إذا شئت . انطلق منذ اللحظة إذا شئت . ولكن اعلم أن النصر بات مكفولاً لنا ، وأنك لن تصيب من دعوتك الشائنة

لخصمنا ومن انضمامك السافر إلى أعدائنا ، إلا لعنة أمتك وبغض ابنتك والموت المحقق المحتوم . اذهب إذا شئت !

وأرادت أن تحرجه ، فعدت نحو باب الصدر وفتحته على مصراعيه ، ورددت :

— انصرف . . . اذهب . . .

فظل بهزاد شاخصاً إليها ولم يتحرك . وفى تلك اللحظة سمع فى الخارج صهيل خيل وصراخ جند وقعقعة سلاح . فاندفعت إلى الحجرة إحدى الجوارى وقالت :

— مولاتى ، عشرة من رجال الشرطة يسألون عن سيدى الكبير . . .

فقال بهزاد :

— لينتظروا فى الفناء الخارجى . أكرمى وفادتهم وسألحق بك . . .

فجحظت عينا أمسترس . وقالت وهى ترتعد :

— جاءوا للقبض عليك . . . بل علينا معاً . . . كنت أتوقع ذلك . . . كنت واثقة . . .

وملكها اليأس والذعر ، فأحاطت والدها بذراعيها وصرخت :

— أنا ولا ريب سأنجو . أما أنت فستموت . ليس لى سواك . لا . . . لا أريد أن تموت . . . أنا امرأة وتأدية الواجب لا يمكن وحدها أن تسعدنى . . . بى حاجة إلى الحب ، إلى العطف ، إلى الحنان . ولقد ضحيت بزوجى ، فلا أقل من أن يبقى لى والدى . فثب إلى رشدك . أنكر منزعك الجديد . استغفر عما بدر منك وأشفق على نفسك وعلىّ . . .

وضمته إلى صدرها فى عنف . فاقتنع بهزاد ووثق وتهاوى . أحس وهو بين ذراعيها سعادة خارقة لم يشعر بمثلها أبداً . أحس تلك السعادة الغامرة الخارقة التى يشعر بها مجاهد كافح طويلاً بمفرده ثم التقى فجأة بأخ له فى الجهاد . فالتصق بابنته ، وطفق يقبلها فى وجهها وعينيها قبلات محموم .

ثم حنى رأسه الكليل على كتفها وغمغم :

ــ أنا الذى عذبت نفسى . أنا الذى أردت أن أفعل ما فعلت ! . . .

وفك أزرار جلبابه ، وكشف عن قميصه الأبيض ، وأخرج من جيبه الورقة المطوية الزرقاء وناولها لابنته وقال :

ــ اقرئى . . .

فلم تكد أمسترس تلقى على الورقة نظرة حتى جمدت وعقد الدهش لسانها . لم تصدق . لم تستطع أن تتصور . فانحنت أيضاً وقرأت . فطغت عليها فرحة مخبولة وصاحت :

ــ كنت إذن على اتفاق مع الزعيم أردشير ؟

فأجاب :

ــ وهذا هو الإذن منه باجتياز الحدود . أجل كنا متفقين ، وكنت قد عزمت فى حالة رفضك أن أسافر وحدى إلى هرمز لتأدية الواجب بدلاً منك . ولقد أمر أردشير رجاله بالسهر على حياتى ، فحالوا بين الجماهير وبين قتلى . وها هم الآن أقبلوا لا لإلقاء القبض علىّ ، بل ليسهلوا لى السفر ويحمونى من سخط الجماهير . . .

فقالت أمسترس وهى مأخوذة :

ــ ولكن لم لم ترحل خفية ؟ . . . لم ظهرت أمام الناس بمظهر الخائن ؟ . . . لم عرضت نفسك لغضب الجماهير وبطشها . كان يمكن أن تموت . . . .

فصاح بها :

ــ كان يجب أن أواجه الموت يا ابنتى . كان يجب أن يعلم الجميع أنى بالفعل خائن . أردت ألا أدع مجالاً للشك عند أعدائنا بأنى قد أصبحت للملك الغاصب داعية ونصيراً . وإلا فكيف كان يمكننى أن أكسب ثقة زوجك وأنتزع سره وأعرف منه أين أخفى الوصية المقدسة

التى كنت أعتقد أنها فى حوزته ثم أوعز إلى أنصارنا فى هرمز بالقضاء عليه ؟ . . . أردت أن يعتقد أن انقلابى كان من الصدق بحيث جاهرت به أمام الكل واستهنت فى سبيله بحياتى . ولقد بعثنا إلى زوجك مع قوافل التجار بمن أبلغه النبأ وقص عليه قصتى . واو انى ذهبت الآن إليه وكانت الوصية المقدسة فى حوزته ، لرحب بمقدمى وما تردد لحظة واحدة فى مصارحتى بالحقيقة كلها .

فقالت أمسترس وهى ترتجف :

— إذن فأنت قد تحملت بمحض اختيارك كل ذلك العار والعذاب ؟ . . .

فهتف :

— من أجل بلادى. كان لابد أن أضرب وأهان وأرى الموت بعينى . ولقد بوركت على تضحيتى بأن رأيت المعجزة وربحت كل شىء . . وصية المصلح العظيم مؤسس عقيدة شعبى ، وكرامة ابنتى ، ومستقبل وطنى . فإلى العمل الآن يا أمسترس . إلى الحرية المكفولة والنصر المحقق . احتفظى بكنزك الثمين ريثما يصل أردشير ويتسلمه من يدك ! . . .

واندفع إلى الفناء الخارجى وأسر إلى رئيس الشرطة بأنه قد عثر على الوصية المقدسة ، وأمره بأن يسرع ويستدعى زعيم الشعب .

وكر راجعاً وهو شبه مجذوب . يحدق إلى ابنته التى افتقدها بالأمس فوجدها اليوم ، وينعم النظر فى قامتها المديدة ، ورأسها الشامخ ، وأنفها المعتز ، ولا يستطيع أن يتصور أنه هو والدها ، وهو الذى أوجدها ، وهو الذى بتضحيته وعذابه قد خلقها خلقاً جديداً ، ونفخ فيها روح الإيمان وإرادة القوة ونبض الحياة .

وظل يشخص إليها وشعور الإعجاب والحب يملأ صدره ، حتى ارتج

القصر من حوله ، ودوى فى الجو صفير الأبواق ، وصاح فى الخارج رسول يعلن مقدم أردشير . فسترت أمسترس وجهها بنقاب وخف بهزاد لاستقبال الزعيم .

ودخل أردشير ساكناً ثابتاً مهيباً وعانق بهزاد . وكان رجلاً فى نحو الأربعين من عمره ، صلب الجبهة ، أسود الشعر ، متقد العينين ، ضامر الوجنتين ، فى تقاطيعه الناتئة ثقة وعزم ، وفى نظراته الخاطفة ذكاء ثاقب متيقظ لماح . فانحنت أمسترس فى احترام وهمت بأن تلثم يده . ولكنه جذب ذراعه وقطب حاجبيه وأعرض عنها . فأسرع بهزاد وقص عليه ما وقع وكيف أن أمسترس التى خانت وعصت قد آمنت فى النهاية واهتدت . ثم قاده إلى مخدعها ، واتجه به نحو الخزانة وفتحها. فتراجع أردشير حيال الضوء الساطع المتدفق منها ، واختلج إذ أبصر فى جوفها المتوهج أمله المنشود ممثلاً فى الوصية الروحية المقدسة . فخر على الأرض ساجداً ، ثم نهض فجأة وأبرقت عيناه ، وقال لأمسترس فى صوت صارم جهير :

— لو انك لم تتحولى عن غيك وترتدى إلى صوابك لكان والدك نفسه قد أقر حكمى بإعدامك قبل أن تلحقى بزوجك المجرم وتحملى إلى الملك المستبد حافز كفاحنا ممثلاً فى وصية مصلح بلادنا العظيم . إن قلب والدك هو الذى أنقذك . قلب الفنان الذى فى مقدوره أن يشعر بكل شىء ، ويرتفع إلى أعظم شىء ، ويحتمل فى سبيل عقيدته أقسى وأفجع شىء . نأنا أبقى على حياتك تقديراً لتضحية والدك واهتدائك . ولكنى لن أتجاوز عما سبق وأبديته من مروق وعصيان . فتهيئى للتضحية أنت أيضاً . أمامك أسبوع واحد تتزودين فيه من مناعم الحياة . ومتى انقضى الأسبوع فعليك أن تغتسلى وتتطهرى ، ثم ترتدى ثوب عرسك الأبيض ، ثم تدخلى المعبد ، معبد المصلح زرادشت ، وتمكثى هناك . . . لن تخرجي قبل خمسة أعوام كاملة . لن ترى عيناك نور الدنيا قبل أن تكفرى عن ذنبك طويلاً ،

وتصومي وتصلي ، وتبتهلي إلى الآلهة أن تغفر لك ! . . .

وتحول أردشير صوب الباب ، وأهاب برئيس حرسه :

ـــ لقد دقت الساعة . فمر رجالك بأن ينفخوا في الأبواق ، وادع الكهنة والشعب إلى التجمع حالاً تحت شرفات هذا القصر . اذهب .

ونضا عنه مئزره ، فبدا في شكته العسكرية جندياً كامل السلاح . فانخلع بدن بهزاد وتراجع . ولكن أردشير صاح به آمراً :

ـــ تقدم . . . أنت الذي يجب أن تحمل الوصية وتتقدم . . .

فأدرك بهزاد مراده ، وجثا على ركبتيه ، ومد يده إلى جوف الخزانة . ثم ارتد رافعاً بين ذراعيه المرتعشتين الوصية المقدسة . فدفعه أردشير إلى الشرفة الكبيرة ، وفتح بابها ، وأطل منها على الشعب .

وكانت الجماهير التي استنفرها صفير الأبواق ، والتي عجبت لوجود أردشير في قصر بهزاد ، قد تنادت وتجمعت واحتشدت تحت شرفات القصر وهي تدمدم وتتسخط . ولكنها ما إن تطلعت وأبصرت . ما ان أخذت عيونها الشاخصة هيكل أردشير وبالقرب منه بهزاد رافعاً بذراعيه الوصية المقدسة ، حتى جمدت وتحيرت ، ثم ماجت وتخبطت ثم أخذتها فرحة اليقين بأن رمز قوتها الروحية أصبح لأردشير بعد أن كان للملك الطاغية . فجعلت تهتف بأصوات مدوية مهللة . وعندئذ رفع أردشير ذراعه . فسكنت الأصوات ، واشرأبت الأعناق ، وقال الزعيم بصوته الثابت الجهير وهو يشير إلى الفنان البطل :

ـــ لم يكن بهزاد خائناً . لقد اصطنع الخيانة ليضلل الملك المستبد ويضلل أعوانه في مدينتنا ، ويعرف منهم أين أخفوا الوصية المقدسة التي خلفها مصلحنا العظيم . إنه هو الذي عثر عليها . إنه هو الذي بتضحيته وعذابه واستهدافه للموت قد رد إلينا مثار قوتنا ، وحافز كفاحنا ، وواسطة التآلف والترابط بين جميع أفراد شعبنا . فأنا أحيي البطل بهزاد وأرد إليه

اعتباره أمامكم . . .

فاصطخبت الجماهير وعز عليها أنها كانت على وشك أن تفتك بهزاد وهو برىء . فمضت تهتف باسمه هتافاً متواصلاً . فاستمهلها أردشير لحظات ثم قال :

— لن تكون لبطولة بهزاد أية قيمة إن نحن لم نتخذ منها مثلاً وقدوة . وما دامت الوصية المقدسة قد أصبحت فى يدنا فيجب أن تكون البطولة شعارنا وأن نسرع منذ اللحظة باستطراد الكفاح . الساعة الفاصلة قد دنت . والوطن يدعوكم ، والخلود فى الوطن هو الذى ينبغى أن يكون منذ اللحظة غايتكم . إن التضحية بالحياة هى الحياة . وأما حب الحياة فيجب أن يكون حباً للموت كى يلد الحياة . الآن سيبدأ الزحف إلى هرمز . سيتحرك الآن جيشنا وسيحمل على أسنة الرماح الوصية المقدسة . فإما أن نموت جميعاً ، وإما أن نحطم الملك المستبد ونحرر بلادنا !

فانفجرت الجماهير صارخة ، وتعالى هتافها بالجهاد وحياة الزعيم . فتحول أردشير وقبل الوصية ثم اوّح بذراعه وحيا الشعب ، ثم أمر بهزاد بالتراجع وارتد هو فى إثره ، وأوصد باب الشرفة فى سكون .

وما إن احتوته الحجرة الصامتة الزاخرة حيث كانت أمسترس واقفة فى إحدى زواياها تنظر إليه بعينين عابدتين كأنه رب من الأرباب ، حتى اتجه نحوها وقال :

— اذكرى ما للوطن والآلهة عليك من حق القصاص . يجب أن تدخلى المعبد متى انقضى الأسبوع . يجب أن تكفرى عن خيانتك يا أمسترس . . .

وتناول الوصية من أبيها ، وكساها بمئزره فى خشوع وحرص . ثم طوى عليها أطراف المئزر وهو يضمها إلى صدره ثم فتح ذراعيه وعانق بهزاد ، واندفع إلى الخارج متهيئاً للزحف وخوض المعركة .

وعندئذ ، وفى تلك اللحظة التى لم يكن يحلم بها الشيخ أبداً ، تدفق الدم حاراً فى عروقه ، وراعه من نفسه أنه هو الذى استطاع أن يحقق بتضحيته كل ما أبصرته عيناه . فاحتوته نشوة عاتية وهم بأن يطلق من صدره صرخة فرح . ولكنه خاف مع ذلك من الغد المجهول . خاف من غدر القدر واحتمال فشل المعركة . فاختنقت الصرخة فى صدره ، لا سيما وأنه ذكر أيضاً حكم الزعيم على ابنته . فناء عليه الهم والتعب بعد طول الكفاح . فتصدع بدنه ، وتلهبت جراحه ، وارتمى خائراً منهوكاً بين ذراعى المرأة التى كانت تفكر فيما قاله الزعيم ، وتتصور نفسها سجينة فى المعبد ، وتنظر إلى السماء من خلال قضبان نوافذ قصرها وترتعش . . .

* * *

وظل الوالد والبنت منزويين فى القصر الهامد ستة أيام بطولها ، يتلقيان أنباء المعركة فى لهفة محمومة يتنازعها الأمل والخوف . وبعد منتصف الليلة السابعة بساعات وقبل أن يطلع الفجر ، جاءهما النبأ بانتصار الزعيم ، وسحق جيوش الملك الطاغية ، وانتحار زوج أمسترس . فتاه عقل بهزاد ، وانطلق يهتف ويهلل ويشكر الآلهة وهو يقبل الأرض . أما أمسترس فقد غمرها فجأة صفاء ساهم عجيب . أشرق جبينها ، وتألقت عيناها . فأسرعت من فورها واغتسلت وتطهرت ، ثم مرقت إلى مخدعها ، ثم عادت وعليها ثوب عرسها الأبيض ، وفى يدها مئزر عاطل من الزينة حالك السواد . فنظر إليها بهزاد واختلج . نظر إليها وأدرك . نظر إليها ولم ينطق . ثم دنا منها ، وأخذ مئزرها الأسود وألقى به على كتفيها . وقبل أن ينتشر نبأ النصر فى المدينة وتغص شوارعها بالجماهير ، خرج بهزاد بابنته فى الظلام الدامس وقادها بنفسه إلى معبد المصلح زرادشت ، وسلمها إلى رئيس الكهنة وهو يعلم علم اليقين أن الاتصال بها أصبح منذ اليوم محرماً عليه ، وأنه قد يموت فى غضون تلك الأعوام الخمسة دون أن يرى ابنته الوحيدة مرة ثانية . . .

ولما قبلها قبلة الوداع ، وأغلق عليها باب المعبد ، تمالك نفسه جهده ، واتجه نحو بيته ، ودخل مرسمه ملتمساً عزاء لروحه فى فنه . فتناول الريشة وأراد أن يهذب صورة من صور العذارى المجاهدات اللاتى كان قد رسمهن فى لوحته . بيد أنه لم يكد يفعل حتى رأى فى الصورة رأى العين وجه ابنته . ففاض به شعور الكبر والعزة والفخار . ولكنه كان مع ذلك والدأ ، وكان إنساناً . فتمزق قلبه ، وجاشت لوعته ، وطفق يحدق إلى الصورة ، وانهمرت من عينيه الدموع .

من تاريخ قرطاجنة :

المشعل

« وقعت حوادث هذه القصة خلال الحرب المشهورة التى نشبت بين روما وقرطجنة عام ١٤٩ قبل الميلاد ، وهى صورة حية لكفاح شعب يذود عن حريته ، كما هى مأساة قلب بشرى موزع عصفت به عوامل الفطرة فجاهد ليؤكد دعوة الروح » .

* * *

قال الشريف لوسيوس :

ــ لقد صدرإلينا الأمر نحن الأجانب بمغادرة بلادكم . . . ولقد جئت لاودعك يا هملكار قبل أن أعود إلى روما . . . فأنا صديقك ولكنى رومانى صميم . . . وغاية ما أود أن أقوله لك هو أن تنصح زعيمكم بمهادنة بلادى ، وأن تحذر أنت عاقبة تهورك . . .

فصاح الشيخ هملكار :

ــ كيف تطلب إلينا أن نحبكم ونتعاون معكم وأنتم تريدون اغتصاب بلادنا ؟ . . . لسنا بأقل وطنية منكم . سندافع عن قرطجنة بكل ما أوتينا من قوة وإيمان . وأنا ، أنا الشيخ الهرم الذى لم أعقب غير ولد واحد تعرفه أنت تماماً وتعرف مبلغ حبى له ، كما تعرف أنه غير مجبر على خدمة الجيش لانه وحيدى ، هذا الابن العزيز هو أيضاً دائم التلهف على قتالكم ،

وأنا لن أستبقيه بجوارى بل سأشجعه على التطوع متى دقت الساعة ونشبت الحرب !

فابتسم لوسيوس وقال :

– ولكن ابنك هذا ما يزال بائساً مثلك ، يعيش عالة عليك وإن كان يستجلب لك الثياب الرثة التى تبيعها فى هذا الحانوت ، ويتصدق بها عليك بعض الأغنياء من أبناء جلدتك . . . أنت اليوم فى السبعين من عمرك ، ولو طاوعتنى ففى مقدورى أن أهوّن عليك حمل شيخوختك ، وأنتشل من وهدة البؤس ولدك ، وأجعل منك سيداً ثرياً عظيما . . . فثب إلى رشدك ، ودع التآمر على روما والرومانيين . الحرب على الأبواب . وسيهاجمكم قائدنا « سيبيون أميليان » ، وسيدمر مدينتكم . . . فدع وطنك للقدر واتبعنى . . . إنى أحبك وأريد أن أنقذك قبل فوات الوقت . . .

فهتف هملكار :

– الوقت لم يفت بعد . وإذا كانت ذراع قائدكم سيبيون قد ارتفعت علينا ، فسنقف صفاً واحداً لنردها عنا ، وسنجد عند الاقتضاء . . . بل لقد وجدنا . . . وجدنا من يقطع تلك الذراع وينقذنا منها ! . . .

فبهت لوسيوس وقال :

– ماذا تعنى ؟ . . . لا أفهمك . . .

فضحك هملكار ضحكة متوعدة وأجاب :

– ذلك سري . . . سنستخدم فى كفاحنا كل شيء . . . الرجال ، والسلاح ، وقوة أخرى . . . قوة لن تخطر لكم أبداً على بال ! . .

فقطب لوسيوس حاجبيه وصمت . فابتسم هملكار ، واستطرد :

– لن نضع السلاح حتى نحقق النصر . فوداعاً يا صديقى . فقد يكتب لى أن أموت قبل أن أراك مرة ثانية .

فنهض لوسيوس مكتئباً ، وصافح الشيخ هملكار . وقال :

ـ لست مسئولاً عما يمكن أن يحدث لك في غد .

فقال هملكار :

ـ خير لى أن أموت فى أرض آبائى من أن أعيش فى روما ملطخاً بالعار !

وما إن انصرف لوسيوس حتى أسرع الشيخ هملكار فارتدى قفطانه، وأمر غلامه بإغلاق الحانوت .

وكان الليل قد أرخى سدوله ، وحركة الجمهور تتضاءل وتخف شيئاً فشيئاً . فلما غمر السكون الشارع العريض ، وانصرف الغلام ، تلفت هملكار ليستوثق من أن الشارع قد أصبح مقفراً ، ثم جمع إلى بطنه أطراف معطفه ، وانسل بخطى وئيدة تحت جنح الظلام .

* * *

كان بطل الاستقلال القرطجنى فى ذلك العصر قائداً شاباً يدعى « هيرو » . اشتهر بحنكته ودهائه وعبقريته فى شتى فنون القتال .

فإلى الزعيم هيرو اتجه هملكار . وكان الزعيم ينتظر مقدمه فى منزل صغير كائن فى أول ضاحية من ضواحى مدينة قرطجنة .

فلما دخل الشيخ هملكار وحيا الزعيم ، تراجع وجمد .

شاهد بالقرب منه تلك القوة ، القوة الغامضة التى أشار إليها الشيخ فى حديثه مع لوسيوس . وكانت تلك القوة تتمثل فى شخص امرأة . امرأة ممددة على أريكة عالية . امرأة مصطفاة ومعدة للعظائم ، عرف فيها الشيخ على الفور الأميرة « ديدون » بنت رئيس الكهنة وأرملة أحد حكام المقاطعات القرطجنية الغربية .

وتقدم الشيخ إلى الأميرة ، وقبل فى احترام وخشوع طرف ردائها . فاعتدلت ديدون فى جلستها . وفى تلك اللحظة فقط رآها الشيخ ، وأمكنه أن يتأمل تقاطيع وجهها الباهر الفتان . وكانت امرأة فى عنفوان أنوثتها ،

شامخة الرأس ، ناهدة الصدر ، بضة الإهاب . كانت أجمل امرأة فى قرطجنة . ولقد أسرعت ولبت نداء الزعيم بعد أن علمت بما يضمره القدر لبلادها على يد القائد الرومانى سيبيون .

جاءت ولم يعلم بمقدمها أحد . وها هى ذى جالسة جلسة المرأة الخاضعة الطيعة ، منكرة نفسها ، متناسية أنها أميرة ، مسلمة قيادها للزعيم ، ساكنة ثابتة فى روعة كروعة الفدائيين المؤمنين .

وتصاعد صوت الزعيم هيرو مخترقاً حجاب الصمت :

ـ اعلم يا هملكار أن القائد الرومانى سيهاجمنا صباح الغد !

فأرسل الشيخ صرخة وهم بالكلام . ولكن الزعيم رده واستطرد :

ـ جاءنى النبأ ظهر اليوم . ولذلك أرسلت فى طلبك . ستلقى قرطجنة بعد ساعات أهوال الحرب ولكنها ستكتب لنفسها صفحات مجد تظل أبد الدهر خالدة . فهيئ رجالك للعمل ، وبث فيهم روح التضامن والولاء ، والزم حانوتك غداً منذ الفجر ، وانتظر هناك أوامرى .

وتحول عنه والتفت إلى الأميرة وقال :

ـ أما أنت يا مولاتى فواجبك أن تمكثى هنا ، ولا تغادرى هذا البيت مهما حدث . فإذا شاءت الآلهة وانتصرنا ، فلن أصبح فى حاجة إليك ، وسأردك إلى قصرك معززة مكرمة . أما إذا تنكر الحظ فى مبدأ الأمر لنا ، واستطاع العدو أن يقتحم هذا الجزء من مدينتنا ، ووقعت أنت أسيرة فى يد القائد الرومانى سيبيون ، فعندئذ يبدأ دورك أيتها الأميرة العظيمة الباسلة ... فأرهفى السمع وتأملى فيما أقول : إن المهمة المعهود بها إليك هى أن تستميلى القائد وتقنعيه بأن من الخير لروما أن تكف عن قتالنا وتحالفنا محالفة الند للند . فإن استعصى عليك إقناع القائد بفائدة المحالفة ، فاستدرجيه . . . استدرجيه لتعرفى منه أين تتجمع هيئة قيادة جيشه ، ثم اصبرى حتى يجن الليل ، وأرشدينا إلى ذلك الموقع ببعض العلامات . . أنا موقن من أن هيئة

القيادة الرومانية متجمعة إما بجوار التل الشرقى ، وإما عند سفح الجبل الأجرد . . . وأنا أريد أن أعرف الموقع بالضبط لأباغته وألتف حوله وأضربه ، فأتخلص بذلك من هيئة القيادة وأحرز النصر الساحق المنشود . فإذا كشفت أنت عن هذا السر ، وكان موقع القيادة بجوار التل الشرقى ، فأوقدى هذا المصباح الكبير وضعيه تجاه هذه النافذة المفتوحة . وإذا كان الموقع فى سفح الجبل الأجرد ، فأوقدى مشعلاً . . . مشعلاً صغيراً واوّحى به من النافذة . . . ولسوف أرقبك أنا ورجالى من سطح قصر والدك رئيس الكهنة . . . هذه هى مهمتك الأولى . أما المهمة الثانية فهى أن تتحيّنى الفرص ، وتحاولى القضاء على حياة القائد الرومانى . . . وسواء أوفقت فى مسعاك أم أصابك الفشل ، فواجبك يا ديدون أن تحاولى . . .

وكانت الأميرة تصغى إلى الحديث وأصابعها تعبث بقلب صغير من ذهب ، يتدلى من قلادة كبيرة زينت بها جيدها . . . وفجأة وثبت من مكانها بخفة عجيبة وقالت :

ـ اطمئن يا هيرو . لو وقع سيبيون فى قبضتى ، فسأنتزع سره من شغاف قلبه . ثم أقتله قبل أن يعرف لذة امتلاكى !

واتجهت إلى حيث المصباح الزيتى الخافت القائم على منضدة صغيرة ، ومضت تتلهى بالنفخ فى النار ، مما جعل الضوء يتلألأ حولها ، ويلقى على الجدران ظلالاً رهيبة متراقصة .

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، شرعت جيوش القائد الرومانى فى نصب مجانيقها والتقدم بها نحو أسوار قرطجنة .

وحمى وطيس القتال . فكانت الأحجار تتساقط على المدافعين كوابل المطر ، وهم فى أماكنهم ثابتون ، يكرون على المجانيق ويبذلون قصاراهم لتحطيمها .

واستحالت الحرب إلى سلسلة معارك طاحنة . ودام الحصار أسابيع طويلة ، تمكن سيبيون فى خلالها من إحداث ثغرة صغيرة فى الأسوار تدفق منها بعض عسكره إلى أول ضاحية فى المدينة . غير أن المدافعين حفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ، وجعلوا من كل بيت حصناً ، ومن كل زقاق مخبأ ، ومن كل فرد مقاتلاً .

وفى تلك الفترة العصيبة ، تقدمت كتيبة رومانية صوب الدار التى تقيم فيها ديدون . فأدرك الزعيم هيرو أن الأميرة على وشك أن تقع أسيرة فى يد القائد الرومانى . فاستدعى إليه الشيخ هملكار ، وأمره بأن يسرع ويتصل بالأميرة ويذكرها بأن ساعة الواجب قد دنت .

فلما دخل عليها الشيخ وأنهى إليها الأمر لم تجزع ولم تضطرب . فارتمى هملكار عند قدميها وقال :

— إذنك يا أميرتى بأن أظل بجوارك ، أشهد انتصارك أو أموت معك ! . . .

فغمغمت وهى ساهمة :

— لك ذلك . سأقول إنك أنت الذى ربيتنى وأنك ملازمى وصفيى .

وعندئذ تعالت فى الخارج أصوات الحرس هاتفة لسيبيون . فأطلت المرأة من النافذة . فأخذت عيناها فى ضوء القمر وجه عدوها الألد ، القائد الرومانى ، مقبلاً نحو البيت . فأمرت الشيخ بأن يسرع ويختفى فى إحدى الحجرات . ثم نصبت قامتها وتقدمت . .

وإذ ذاك ، وقبل أن تصل إلى عتبة الباب تراجعت مروعة ومأخوذة . . اتقد بدنها ، وأومضت عيناها . ولبثت فى مكانها منكمشة ومتنبهة . . ترامى إلى سمعها صوت القائد يقول لتابعه وهو يودعه : « الحق بمقر قيادة الجيش حالاً . . اذهب إلى سفح الجبل الأجرد ، وقل لرجالى أن يتهيأوا للهجوم العام الذى سيبدأ بعد غد ! . . . »

فاختلجت ديدون وغمرتها فرحة لم تشعر بها حتى فى ليلة عرسها ... أحست أن القدر حالفها ، ومكن لها فجأة من عدوها ، وهى بعد لم تسدد إليه من جعبة أنوثتها أى سهم . . . فطفقت تردد : يا لحظى ! . . . يا لحظى ! . . . السر قد انكشف من تلقاء نفسه أمامى ، وطالع النصر أقبل ساعياً إلىّ ! . . . إن هيئة القيادة متجمعة عند سفح الجبل الأجرد ... فأبشر بمقدم النصر يا هيرو ، وودع حياتك يا سيبيون ، وعش وتفوّق يا وطنى ! . . .

ثم كرت راجعة ، وتمددت على أريكتها ، ومضت تحدق إلى الباب وهى تتحفز وتنتظر .

ودخل القائد سيبيون إميليان ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى بهت . . .

لم يشهد فى حياته كلها امرأة جميلة مثل هذا الجمال الخارق الفتان . فتقدم إليها على مهل وقال :

ــ أشهد الآلهة أنى ما كنت أود أن أهاجم مدينتكم . ولكن شعبكم العنيد هو الذى أراد هذا . ولقد كان من واجبى أن أعاقب العصاة فعاقبت !

فرشقته ديدون بنظرة حادة وقالت :

ــ لا أفهم كيف تسمى الأحرار الذائدين عن بلادهم عصاة ؟! . .

فأجاب فى هدوء :

ــ كل من لا يقبل عدل روما يعتبر عاصياً !

فهتفت ديدون :

ــ بأى حق تريدون أن تفرضوا عدلكم على الناس ؟! . . .

فهم القائد بالضحك ولكنه قال :

ــ القوة هى التى تفرض العدل على الضعيف خدمة له . فإن لم يتقبله

راضياً فرض عليه بالسيف فرضاً . ذلك هو ناموس الحياة منذ الأزل !

فارتجفت ديدون وقالت :

— إذا فرض الأقوياء عدلهم على الضعفاء ، تحول العدل عن غايته ، وانتهى إلى مصلحة الأقوياء ! . . . العدل الصحيح يجب أن يكون ثمرة الحرية لا وليد الاستبداد ! . . . كيف لا تفهم هذا يا سيبيون وأنت الرجل النابغ العبقرى ؟ . . . أنت ، أنت وحدك يمكنك إنشاء عالم يقر العدل المثالى الصحيح . فإلى محالفة شريفة بين قرطجنة وروما أدعوك . إلى العدل والسلام والحرية أدعوك يا سيبيون ! . . ..

وكانت ترمقه بنظرة جانبية فاحصة . أما هو فكان يتأمل شفتيها الحمراوين ، وصدرها الناهد ، وأنفها الدقيق ، وخفق أهدابها الطويلة على عينيها السوداوين ، وفجأة ، سلب لبه جمالها . فالتصق بها على الرغم منه وقال :

— أنت أسيرتى يا ديدون . وأنا معجب بك . فانبذى النقاش السياسى الخيالى واسمعى : لن أغتصبك ! . . أنت امرة فذة ! . . امرأة خارقة الحسن والذكاء ! . . فما رأيك لو حررتك وتزوجتك ؟ . . أتدهشين ؟ . . أنا رجل عسكرى سريع التأثر شديد العزم . وأنى لأقسم بآلهتى أن أتزوجك بعد انتصارى . أما إذا كان فى نيتك أن تثأرى لقومك باستدراجى إلى خيانة أو مروق ، فأنا لا أخافك بل أعفو عنك وأقول لك منذ الآن : اذهبى . . .

وتحوّل نحو الباب . فاستهولت المرأة فشلها ، وملأ الحنق قلبها ، وأفعمته نية القتل . فلحقت بالرجل وصاحت :

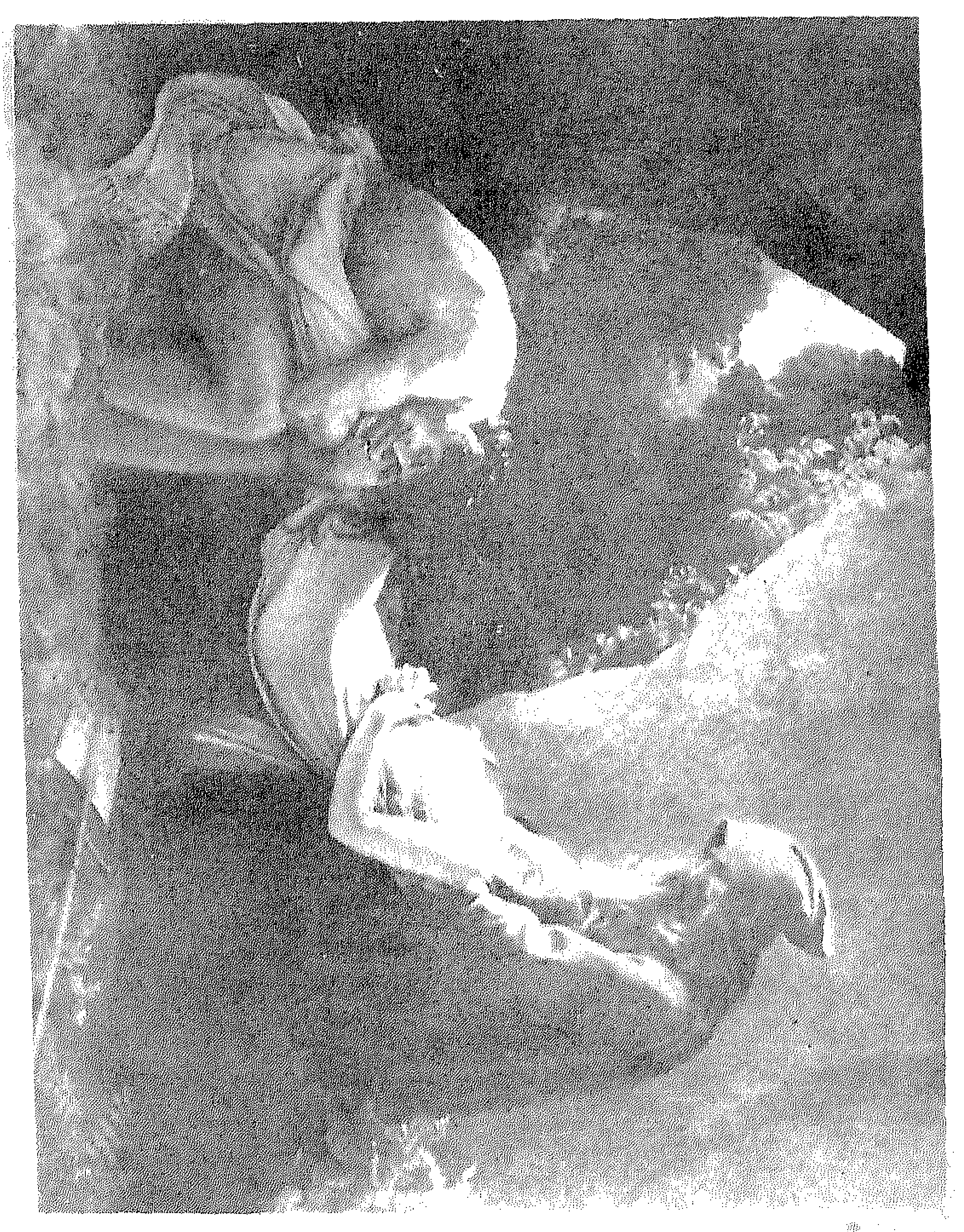
— أيهون عليك طردى وأنت قد بدأت تحبنى ؟ . . أنت قاس ولكنك جميل ! . . وأنا أيضاً قد أعجبت بك وأخذت ! . . فإلى أين يمكن أن أذهب الآن بدونك يا سيبيون ؟ . .

وأرجفت بدنها إرجافاً متعاقباً وبكت . . وعندئذ وقع ما ليس فى الحسبان . اندفع القائد إليها . فتوهمت ديدون أن الشهوة العاتية قد جرفته وأنه سيغتصبها . ولكنه ضمها إلى صدره فى رفق ، وهدهدها كأنها طفلة ، وزايلته وحشيته ، وحل محلها حنان غريب . . . حنان عميق . . . حنان غامر . . . فبهتت المرأة وترنحت ، وأحست على دهش منها شيئاً جديداً ، طارئاً ، شيئاً يستيقظ فى نفسها بغتة ويخلبها . فانكمشت بين ذراعى القائد وانهار عزمها . خضعت لسلطان العاطفة ، فأحبت هى أيضاً سيبيون وافتتنت به . ولما كانت تتوقع منه استباحة وبطشاً ثم رأت على النقيض سماحة وحناناً وعشقاً ، لم تستطع أن تتصور كيف يمكنها أن تغدر به وتقتله . . . فأدنته منها ، وأشارت إلى القلادة الكبيرة المزدان بها جيدها حيث يتدلى القلب الذهبى الصغير . ثم ضغطت على القلب فانفتح . فانتزعت منه دبوساً أسود لوّحت به فى وجه القائد وقالت : « بهذا الدبوس المنقوع فى السم كنت سأقتلك ! . . »

فغمغم القائد : « كنت أشعر أنك عدوتى . . . ولكنى كنت أود أن أظل أنا أيضاً عدوك كى لا أقع أسير غرامك ولو قتلتنى ! . . . أما الآن فأنا أعبدك . . . » فخبلها الحب ، وأعماها عن رؤية واجبها . فألقت بالدبوس المسمم من النافذة . وفى تلك اللحظة ، دوّى فى الخارج صوت النفير فهب سيبيون واثباً وقال :

ــ النفير يدعونى . . يجب أن أنطلق من فورى إلى هيئة القيادة كى أعد العدة للهجوم الكبير . . . لن أعود قبل ظهر الغد يا ديدون . . . فامكثى هنا فى انتظارى . . . وسيسهر عليك رجال حرسى . . أما اليمين التى أقسمتها لك فلن أحنث بها أبداً . . . لن أغتصبك يا ديدون بل سأقترن بك ! . . .

واحتواها بين ذراعيه وقبلها ثم طوّح بمئزره على كتفه وخرج .



« أتالا — بطلة قصة شاتوبريان المشهورة — عند القبر » — للفنانة چيرودية تريوسون — متحف اللوفر — باريس .



« الحبيبان فى الريف » — للفنان كوربيه — متحف القصر الصغير —

* * *

ولما ساد الصمت أرجاء البيت ، وألفت ديدون نفسها فى الحجرة وحيدة يكتنفها الضوء الهامس الفاضح الرهيب المنبعث من المصباح الخافت ، وترامى إلى سمعها قعقعة سلاح رجال الحرس الجاثمين تحت النافذة ، انتفضت فجأة وأفاقت من سباتها ، واستشعرت فى مثل خطف البرق هول خيانتها وجرمها . فجمد الدم فى عروقها . ثم أخذتها أخذة من بالذعر الساخط المستنكر المخبول ، فجعلت تعض شفتيها ، وتلطم وجهها ، وتمزق ثوبها ، وتجهش بالبكاء . . كيف ؟ . . أممكن هذا ؟ . . أحقاً أن ديدون قد أحبت عدو بلادها ، وعفت عن جلاد شعبها ، وتنكرت لرسالتها وقومها ، وأصبحت هى الفدائية المصطفاة مضرب المثل فى الجبن والخسة والخيانة والفجور ؟ ! . . نعم . لقد أحبت وخانت ! . وها هى ذى ، وحتى هذه اللحظة ، وبرغم يقظة ضميرها وثورة كرامتها ، ما تزال تشعر أنها تريد أن تحب ، وتريد أن تخون ! . . . أجل . إنها تريد أن تحب وتخون لأنها ترتعد وتخاف . . . تخاف على حياة سيبيون . . تخاف على حياة حبيبها ! . . لقد أمرها الزعيم هيرو أن توقد مشعلاً صغيراً وتلوح به من النافذة إذا استوثقت من أن هيئة القيادة الرومانية تتجمع عند سفح الجبل الأجرد . . . وهى واثقة من ذلك كل الثقة . . . ولقد سمعته بأذنها من سيبيون نفسه وهو يخاطب تابعه . . . فإذا أوقدت المشعل الآن ولوحت به ، أسرع الزعيم هيرو ، والتف حول سفح الجبل وأطبق بجنوده على هيئة قيادة جيش الرومان فقتل أفرادها جميعاً ومن بينهم سيبيون ! . . إن سيبيون هناك ! . . لقد ذهب إلى هناك ! . . إنه الآن فى هيئة القيادة ، وحياته وموته رهن إشارة من ديدون ! . أفتقتله ؟ . . أتوقد المشعل وتقتله ؟ . . أتقتله وهى تحبه ؟ . . . ولكنها إن قتلته قتلت قلبها . وإن لم تقتله قتلت ضميرها ، ومكنت لجيش

العدو من إعداد عدته للهجوم المنتظر ، ومن إحراز نصر قد يأتى على بلادها ، ويجعلها بين عشية وضحاها كومة من خرائب وأطلال ! . . .

وتشوش فكر المرأة ، وأصابها من فرط التخبط والرعب شبه جنون .

وفى تلك اللحظة تصاعدت من تحت النافذة حيث يجثم الحرس صيحات متقطعة مزعجة أعقبتها صرخة مخنوقة أشبه بحشرجة إنسان . فانتفضت ديدون وتلفتت . ففتح الباب الداخلى وبرز منه هملكار .

دخل الشيخ متوهج العينين ، منصوب القامة ، مشرق الأسارير ، وتقدم من الأميرة ، ثم هتف ملء صدره كمن أصاب من السعادة حظاً خارقاً طالما تمناه :

ـ لقد قتل الحرس ولدى ! . . . ولدى الوحيد ! . . . رأيته بعينى يموت ! . . . كان قد تطوع فى الجيش . ولابد أنه علم أنى هنا فظن أنهم أسرونى . فجاء ليستطلع جلية الأمر فاصطدم بالحرس فقتلوه ولكن بعد أن قتل هو منهم اثنين . . إنى لفخور به أيتها الأميرة ومعتز بتضحيته وسعيد برغم عذابى !

وتفرس الشيخ فى المرأة وهو يلهث . فألفاها زائغة البصر ومضطربة ، ثم لمح القلب الذهبى الصغير مفتوح الغلاف على نحرها وخلواً من الدبوس المسمم . فاشتعلت عيناه ، وفاض به الفرح وصاح :

ـ إذن فقد قمت بواجبك أنت أيضاً يا ديدون ؟ . . . نعم . لابد أنك قمت بواجبك ! . . لابد أنك نفثت السم فى بدن القائد ! . . . أليس كذلك ؟ . . . لقد رأيته بعينى يسير مترنحاً وهو يخرج من هنا . . . سيموت ! . . . لا ريب أنه سيموت ! . . .

وجرفته فرحته ، فجثا عند قدميها ، وطفق يقبلهما ويقول :

ـ ما أصغر تضحية ولدى إلى جانب ما بذلت يا ديدون ! . . . يا لك من فدائية جبارة الحسن والعزم يا ديدون ! . . .

فنظرت إليه المرأة وأحست كأنما هو يطعنها . . . صغرت تماماً فى عين نفسها . احتقرت ذاتها ، واحتقرت قلبها ، واحتقرت أنوثتها التى كانت تزهو بها . أخجلها أن يثق أهلها فيها ثم تخيب الأمل وتهدم الثقة . كبر عليها أن يفرح الرجل باستشهاد ولده الوحيد بينما ترتع هى فى بؤرة خيانتها وعارها . كبر عليها أن يكون هذا الشيخ المهدم التاعس الفقير المسكين ، أنبل منها خلقاً ، وأبرأ طبعاً ، وأصدق ألف مرة وطنية وحماسة وإيماناً . فشخصت إليه وهو يهتف ويهلل ، وارتمت عليه وصرخت :

ـــ سيموت سيبيون يا هملكار ! . . . ولكنه لن يموت بالسم بل بيد هيرو ! . . . إنه الآن هناك . . . فى هيئة القيادة . . . وهيئة القيادة مجتمعة عند سفح الجبل الأجرد . . . وسيعلم الزعيم موقعها . . . سيعلم الزعيم الساعة كل شيء !

واندفعت لفورها ، واختطفت مشعلاً صغيراً كان ملقى فى إحدى زوايا الحجرة ، ثم أوقدته . واتجهت نحو النافذة ، ورفعت ذراعها ، وجعلت تلوح بالمشعل فى الفضاء . . .

وانقضت ساعة طويلة . . . وفجأة ماج الجو حول البيت ، وانبعثت من جوف الظلام صرخات استغاثة مدوية . فأسرعت ديدون إلى النافذة وتبعها هملكار . فأبصروا الجنود . . . جنود الرومان . . . جنود الكتيبة التى نفذت إلى الضاحية ، يتراجعون عنها ، والذعر يطاردهم ، والفوضى تعيث فيهم . فتعلق الشيخ هملكار بديدون وهو يجاهد نشوة الفرح ويتماسك . ولكنه ارتعد فجأة ، وصاح :

ـــ انظرى . . . هذا الفارس . . أليس هو ؟ . . . إنه هو سيبيون . . . قادم إلينا على ظهر جواده ! . . . لقد نجا ! . .

فحدقت المرأة إلى الشارع وغاض دمها . أيقنت أن القدر الغاشم يتحداها ، وأن التجربة المروعة قد عادت وزحفت إليها . فأسرعت

وأهابت بالشيخ :

— يجب أن نفر يا هملكارا ! . . .

فطوقها الرجل بذراعه ، وانتزع خنجره وصرخ :

— ويل لمن يمسك بأذى يا ديدون !

ودس الخنجر فى صداره ، واتجه بالمرأة صوب الباب . غير أن الباب ارتج فى تلك اللحظة وفتح ودخل منه سيبيون . . . دخل فى صحبة أربعة من جنوده ، مندلع العينين ، مشوش الشعر ، مهلهل الثياب ، وقال دون أن يلقى على الشيخ هملكار نظرة : « إن جيشنا يتقهقر ، والزعيم هيرو قد انتصر فى هذه المعركة ! . . عرف موقع القيادة ، فباغتها والتف حولها ، وقتل رجالها ، وكدت أموت أنا أيضاً لولا أن تداركتنى معجزة ! . . . فاتبعينى يا ديدون . . اتبعينى حالاً . . . يجب أن تتبعينى وإلا أهلكتك . فأنا أحبك وأنت تحبيننى . إنلك الآن أملى وحافزى وقوتى ! . . . سأحملك على ظهر جوادى ، وأنطلق بك خارج الأسوار قبل أن يفاجئنا جيش العدو ويسد أمامنا مسالك الطريق . . . اتبعينى . .

وجذبها من ذراعها . فارتجفت المرأة وصاحت :

— إلى أين ؟

فأجاب :

— إلى روما ، حيث أقترن بك ، وأعد العدة لكفاح جديد وهجوم جديد .

فصوبت إليه ديدون بصرها ، ثم تحولت إلى الشيخ هملكار الذى كان يحدق إليها فى دهش واستنكار ووجوم . ثم ارتدت إلى القائد الرومانى وقالت فى ثبات :

— كلا أيها القائد ! . . . لم تعد ديدون أنثى ! . . . انظر إلى . . . ألم أتغير ؟ . ألا ترى حول وجهى هالة الفدائيين ؟ . . . لا . . . لم أعد

أنثى بل مواطنة ! . لقد نفضت عني عارى وتطهرت ! . . أنا ، أنا التى هزمتك ! . . . أنا التى أوقدت هذا المشعل ، مشعل الحرية ، وأرشدت به إلى موقع قيادتكم بعد أن سمعتك أنت تتحدث عنه إلى تابعك ! . . فمهما حاولت الآن فلن تصرعنى ! . سأكفر عن حبى الأثيم كما كفرت عن خيانتى ! لن تستطيع الثأر منى باغتصابى ثم بقتلى ! . . أتسمع ؟ . . لن أبيح نفسى ! . . لن أبيح نفسى لعدو بلادى ! . .

وغافلت الشيخ وهو ذاهل ، واختطفت الخنجر من صداره ، وصرخت :

ــ الوداع يا هملكار ، واذكرنى! . .

واستجمعت قواها ، وأغمدت الخنجر فى صدرها .

من شمال أوربا :

قلب وضمير وأشباح

« إن تاريخ أوربا الشمالية حافل بمظالم الاستعمار . فقد كانت بلاد أسوج واقعة تحت نير الدنمارك التى اغتصبتها وسامتها الذل أعواماً طويلة ، حتى ظهر فيها عام ١٤٨٩ للميلاد ، زعيم بطل يدعى « جوستاف فازا » ، ناصب الدنمارك العداء ، ثم أعلن الثورة عليها . فتربص به الدنماركيون واعتقلوه . ففر من معتقله ، وواصل جهاده ، حتى حرر البلاد الأسوجية من نير الغاصب وتوج ملكاً عليها .

وفى هذه القصة صورة مجيدة لكفاح ذلك الزعيم . ومأساة وطنية وعاطفية خليقة بأن ينعم النظر فيها كل مواطن مسئول » .

* * *

خرج هنريك من بيته ، وطفق يمشى فى شوارع مدينة ستوكهلم ، هائماً متخبطاً ، يحدث نفسه ويقول :

ـ لا . . . لا . . . ذلك لن يكون ! . . . يا لها من ليلة رهيبة تلك التى فاجأتنى المرأة فيها ، فلم أصدق بصرى وسمعى ، واعترانى من فرط الدهش والخوف شبه ذهول ! . . . كان الحب صادقاً فى عينيها النجلاوين. ولكن نظرتها . . . لست مطمئناً لنظرتها ولا لضحكتها الخفيفة العابثة التى يشوبها فى بعض الأحيان تهكم خفى . . . أين أنا ؟ . . . وماذا أفعل

هنا ؟ . . هذا هو بيتها الذى تعارفنا فيه ... هذا هو بيتها ! . . .
لقد قادتنى قدماى إلى بيتها بالرغم منى ! . . . ما أشد حبى لها ! . . .
عيناها سر غامض يحيرنى . . . فمها الساحر الخبيث لا يكاد يهم بالكلام
حتى يحجم . . . ومع ذلك فمحياها أرق من صفحة الماء وأفتن من ضوء
الربيع وأبهى من الشمس فى مطلع النهار . . . جسمها اللدن لا يتحرك
بل يتلوى ، ولا يتلوى إلا ليثب ويخلب . . . نفسها مبهمة مخيفة كأعماق
البحر ! . . . ما هذا الهدوء المخيم على منزلها ؟ . . . أين والدها الشيخ الذى
كان يحبنى ؟ . . . نعم . لقد مات . . . وماتت أمها أيضاً وبقيت هى
وحدها على قيد الحياة لتشقينى ! . . . أكان يجب أن تفكر فىّ أنا بعد هذا
الهجر الطويل ؟ . . . كنت قد بدأت أنساها وأغفر لها خيانتها ، وأروض
نفسى على القناعة بالسعادة الروحية يسبغها على أدائى لواجبى نحو زعيمى ،
وحبى العظيم له ، وإيمانى بأن الإخلاص لشخصه ومبادئه هو السبيل
الفرد لإنقاذ بلادى من الهمجية التى كان قد فرضها عليها الدنماركيون
الطغاة ! . . . لا . . . لن أتحول عن إخلاصى للزعيم جوستاف .
جوستاف الأكبر بطل الإصلاح ورجل التجديد . جوستاف الباسل ،
جوستاف الصخرة ، الصخرة التى تنهال عليها معاول الرجعيين كل يوم
فلا تزداد إلا صلابة وشموخاً ولا يزداد أعداؤها إلا حنقاً ويأساً ! .
يا لبلادى التى حررها الزعيم وأنقذها ! . . . إنه اليوم قلبها وروحها وأملها
الواثق المطمئن العنيد ! . . . انظر . . . انظر إلى بلادك اليوم يا هنريك ،
يا وليد العهد الغابر وابن الاستبداد والذل . انظر إلى بلادك وكيف تبدلت
وتطورت على يد الزعيم جوستاف ! . . . لقد انقض على الرجعيين
انقضاض طائر جارح ، فجرد الأشراف من سلطانهم ، وانتزع من
القساوسة المستغلين امتيازاتهم ، وضم إلى الدولة كنوز الإقطاع ، وراح يغدق
على الشعب الكادح الصابر البائس المسكين ! . وها هو الجيش الذى

أنشأه . . . ها هو ذا الأسطول الذى خلقه فى بضعة أعوام ! . . . انظر إلى رجال الجيش والأسطول يا هنريك . . . أكنت بالأمس تحلم بشىء كهذا ؟ . . . أكنت تتصور احتمال حدوث شىء مثل هذا . . . الجنود تخطر فى الشوارع كأنها دروع حية ! . . . ها هم يتقدمون على دوى الطبول . . . ها هم يتقدمون فى خوذاتهم الشامخة ، وشكاتهم اللامعة ، وخطاهم الثابتة ثبات العزم الراسخ المكين ! . . . هذا هو جيشنا ! . . . هذا هو معقد آمالنا ! . . هذا هو ثمرة غرس زعيمنا العظيم ! . . . »

واختلج هنريك اختلاجاً عنيفاً ، وعاد يخاطب نفسه ويقول :

— كيف لم أعد أبصر كل هذا ؟ . . . كيف ينهض فى قرارة نفسى شيطان يريد أن يعمينى عن رؤية كل هذا ، بل كيف أتردد لحظة فى تأدية واجبى ، وأحجم عن خنق قلبى وحتى عن بتر أعضائى فى سبيل رئيسى وزعيمى ؟ ! . . . الريح بدأت تعصف . . . الناس يهرعون إلى منازلهم . . . كلهم يطلب الملاذ والمأوى . . . لا ملاذ لى ! . . . أيجب أن أحزم أمرى وأقدم ؟ . . . أيجب أن أكر راجعاً إلى حيث ينبغى أن أضرب وأقتل ؟ . . . أيجب أن أقتلها فأقتل كل أمل لى فى الحب والسعادة والحياة ؟ . . . أنا كهل فى الستين ، ولكنى أحس أنى أشوق ما أكون إلى الدنيا ، وأنى أقدر على التمتع بها من أى شاب ! . . . لم تفت الستون فى عضدى . . . لم أزل قوياً وجميلاً وفاتناً ، بل لم أزل برغم كهولتى ، ذلك الشاب القاهر الباطش الذى كان يلقب بالأمس ساحر النساء ! . . . أجل . ليس فى القصر من هو أجمل منى وجهاً ، وأصلب عوداً ، وأجدر بمتعة الحب والحياة بين ذراعى امرأة شائقة مثل كاترين ! . . . فكيف أقتلها ، ولو قتلتها فكيف يمكن أن أعيش بعدها بهذا القلب الذى هى نبضه وشعلته ومناه ؟ . . . الطبول تدق . . . لا أريد أن أسمع شيئاً . . . لماذا أعرضت عنى بعد وفاة زوجك الوزير الأول يا كاترين ؟ . . .

لم يعجبك منصبي ، لم يعجبك منى أنى رئيس الشرطة فقط ، ولكنى كنت أعبدك يا كاترين ، وكنت أرمل أنا أيضاً وليس لى غير ولد واحد ، فقربتنى إليك أول الأمر ومنيتنى ، ثم أعرضت عنى لفقرى ، ثم استبدت بك المطامع ، فآثرت علىّ رئيس حرس القصر ، واتصلت به ، وعاهدته على الزواج ، ثم شرعتما تتآمران فى جرأة مروعة وخسيسة على حياة الزعيم ! . . . أجل تآمرتما على الزعيم بالاتفاق مع الدنماركيين أعدائنا ، المتربصين بنا ، المتلهفين على فتح ثغرة بين صفوفنا ، يمكن أن ينفذوا منها ثانية إلى وطننا الحر العزيز ! . . . ولقد كشف الزعيم اليقظ عن المؤامرة ، فأعدم رئيس الحرس صديقك وشريكك . ولما بحث وتحرى واستوثق من تواطؤك معه واتصالاتك بأعدائنا أصدر أمره بإعدامك أنت أيضاً ، فبلغك النبأ ، فأسرعت وفررت من القصر تحت جنح الظلام ، ولجأت إلىّ أنا ! . . . أنا رئيس الشرطة ! . . . أنا المنوط به السهر على أمن البلاد ومستقبل الثورة ! . . . أنا المكلف بالقبض عليك يا كاترين ، وبتسليمك إلى الجلاد أو بقتلك إذا اضطررت ! هو ذاك ، لجأت إلىّ وأنت واثقة من أنى ما أزال أحبك وأعبدك . لجأت إلىّ وملء نفسك اليقين بأنى لابد أن أشفق عليك وأنقذك . ولقد تحقق بعض ظنك . فاختبل عقلى ، وتزعزعت إرادتى ، وتوزع ضميرى بين واجبى وحبى ، ولم أعد أدرى ماذا يجب علىّ أن أفعل ! . . . الطبول تدق . . . ألن تكف عن هديرها المتواصل ؟ . . . أغلب ظنى أن المطر سيغرق الارض . . . الشمس تكافح وكذلك السحب تكافح . . . يالقوة السحب وتفانيها فى التجمع والتساند ومحاولة خنق الشمس ! . . . ولكن أصحيح ما قلته لى يا كاترين ؟ . . . أصحيح أنك تحبيننى أم أن خوفك من الموت هو الذى قادك إلىّ وزين لدهائك أن يستخدمنى ؟ . . . لقد تمنعت علىّ . . . عذبتنى . . . صارحتنى بأنك لن تكونى أبداً لى إلا بعد أن أنقذك . ومع

ذلك فقد عانقتني ، وقبلتني ، وذرفت الدمع حاراً بين يدى ، وأقسمت لى أغلظ الأيمان أنك قد ندمت على خيانتك لى و إعراضك عنى وأنك اليوم تحبينى ! . . . تحبينى ؟ . . . ماذا يهمنى من هذا . ماذا يهمنى إذا كنت صادقة أم كاذبة . المهم أنى أنا أحبك يا كاترين ، وأنى لا أدرى ماذا يجب أن أفعل ، وأنى من أجلك أتدهور ولا أفتأ أتخبط فى أعماق لجتى ! . . . لقد تركتك فى بيتى وخرجت . تركتك فى حراسة ولدى الوحيد وفررت . فررت من ضعفى . فررت من خيانتى . فررت من ترددى وجبنى وصغارى . وطفقت أهيم على وجهى عسى أن أجد مخرجاً من هذا المأزق المروّع الذى يكبلنى ! . . . لقد كان ولدى الذى لم يبلغ العشرين بعد ، أنبل وأقوم وأشجع منى عندما نصحنى بالإصغاء إلى صوت ضميرى وقهر غرامى الفاضح وتأدية واجبى . كان على وشك أن يتحدانى ويذهب هو ويبلغ عنك يا كاترين . فهددته بقتل نفسى إن فعل . فامتثل صاغراً لإرادتى وانفجر باكياً فى لوعة وكمد وسخط ! . . . آه يا كاترين . . . لا قدرة لى على تصور ما ينتظرك لو تخليت عنك وأسلمتك مكرهاً للعقاب ! . . . أين أنا وفى أى طريق أسير ؟ . . . هذا الكهل المهدم يخالسنى النظر عن بعد وكأنه يريد أن يتعقبنى ! . . . ماذا يبدو علىّ ؟ . . . أينم مظهرى عما يعتمل فى نفسى ؟ . . . أفى سحنتى شىء قد تغير ؟ . . . أتراه يعرف شيئاً عنى ؟ . . . لأنطلق من هنا . . . لا . . . لم يعد يتبعنى . . . ما هذا الشارع ؟ . . . لم أسر فيه أبداً . . . نعم . . . مرة واحدة . . . أنا أرتجف . . . أسنانى تصطك . . . ماذا أرى ؟ . . . ما هذا التجمهر ؟ . . . آه . . . أنت يا كاترين . . . أنت دائماً وأبداً . . . كل هذا الجمع قد احتشد بسببك . . . حتى جدران الحوانيت تبرق عليها صورتك . . . أجل . هذه هى النشرات التى ألصقها رجالى بأمرى ، والتى أعد فيها بمكافأة عظيمة لمن يرشد عنك ، وأتوعد

بالموت شنقاً من يخفيك فى داره أو يعاونك على اجتياز الحدود . . .
أنا فعلت هذا ! . . . أنا نفسى ! . . . الكل يعلم الآن بخيانتك . الكل
يبحث عنك . . . رجالى يقتفون أثرك . . . أنت طلبة الجميع ، ومدار
فكر الجميع . وأنت فى هذه الساعة عندى ، فى بيتى ، وإن كان خيالى
لا يستطيع أن يتصور أنك هناك ، وإننى استقبلتك ، وآويتك ، وعصيت أمر
زعيمى ، أنا عينه وساعده وموضع ثقته ورأس أتباعه المؤمنين المخلصين ! ...
لقد احتجبت الشمس تماماً . . . لم أعد أسمع دق الطبول . . . لا أسمع
غير طنين أشبه بالصفير يصم أذنى ويطوح برأسى . . . كيف فكرت
فى هذا ؟ . . . كيف أنقذك يا كاترين ، فأشجع الحركة الرجعية كلها ،
وأبعثها بنفسى من مرقدها ، وأهدد مستقبلنا المجيد ، وأزعزع دعائم حاضرنا
الراهن الذى شيدناه بعقولنا وقلوبنا ودمائنا ؟ ! . . . ولكننى أحبك
يا كاترين ، فكيف أفقدك بعد أن وجدتك . كيف أفقدك بعد أن
طال عذابى ، فأفقت بغتة وأبصرتك على مالى اليد منى . كيف
أكون أنا قاتلك ؟ . . . الصمت يكتنفنى ما خلا الطنين . . . الشارع
يقفر من السابلة . . . أصبح مظلماً موحشاً كنفسى ! . . . ترى أيسقط
المطر ؟ . . . ما هذه الكنيسة ؟ . . . إنها لبديعة الصنع يا هنريك . . .
إن قبتها المزخرفة التى يعلوها الصليب لتشبه تمام الشبه ذلك التاج الذهبى
الذى يلبسه الأسقف عند تأدية الصلاة فى الأعياد الكبرى . . . ترى
أوجدت القبة قبل التاج أم التاج قبل القبة ؟ . . . أنى لأهذى . . . أيمكن
أن يتيح لى القدر أن أتزوج كاترين فى كنيسة جميلة كهذه ؟ . . .
يا للمرأة التى يفوق حسنها كل تصور ! . . . إنها تحبنى . . . أصبحت
تحبنى . . . لقد أكدت وأقسمت بل قالت إنى لن أكتهل أبداً ولن
أشيخ ، وإنى أقوى وأجمل من أنضر وأفتن شاب ! . . . أهى الحقيقة
أم أن قلبى هو الذى يريد أن تكون هى الحقيقة ؟ . . . كيف أصدقك

يا كاترين ؟ . . . أريد أن أصدقك وإلا فلماذا حملت معك مجوهراتك وعرضت على أن نفر معاً إلى حيث الحب والسعادة والنعيم ؟ . . . يجب أن أصدقك . . . هذه فرصة حياتى ولن أدعها تفلت منى . فهل أحزم فى النهاية أمرى وأستمر ؟ . . . هل أخنق ضميرى وأغامر وأقدم وأخون ؟ ... أم يجب أن أطعنك يا كاترين لأتخلص وأستريح؟ . . . إنى لو طعنتك فطيف جثتك لن يفارق خيالى إلا إذا انتحرت وتبعته ! . . . أأقتل ثم أنتحر ؟ . . . ماذا أفعل ؟ . . . إلى من بدورى ألجأ ؟ . . . أين هو الخلاص ؟ أأدخل هذه الكنيسة ؟ . . . أأصلى ؟ . . . لا . . . لا قدرة لى على النظر إلى الله ! . . . ليس فى وسعى أن أعود الساعة إلى البيت . . . يجب أن أظل وحيداً . . . أن أتأمل أيضاً . . . أن أفكر أيضاً . . . السحب تتجمع وتتلبد كأنها توشك أن تطبق على ! . . . من هذا الرجل ؟. هو بعينه . . . الكهل المهدم . . . ماذا يريد منى ؟ . . . لا شىء . . . لقد اختفى . . . إلى أين أذهب ؟ . . . نعم . إلى هناك . . . إلى ذلك المنزل المهجور . . . فلأجلس . . . على هذا الدرج البارد . . . الريح تزأر . . . الرعد يدوى . . . ما أعذب الراحة والأمن هنا ! . . . هدوءاً يا هنريك وتنفس . . . ولكن ما هذا ؟ . . . ماذا أشعر ؟ . . . أصبح كيانى نهباً مقسماً لقوى غير منظورة تحيط بى فجأة وتتقاذفنى ! . . . ما أشبهنى بخلية النحل ! . . . ماذا أسمع . . . ؟ من أنت ؟ . . . من تكون ؟ . . .

العقل : على رسلك يا صاحبى . علام كل هذا الاضطراب . أنت أبله غر . لا تقتل ولا تنتحر . انظر إلى المصلحة فقط . أنت رجل فقير ، والمرأة تحمل ثروة من المجوهرات . فاذهب من فورك إلى بيتك ، واجتهد فى أن تغرر بالمرأة وتخدعها . ألم تعرض هى بالأمس عنك وتنبذك . لا تنظر إلى جسدها بل إلى الصرة الثمينة التى تحملها . لن يجسر أحد على اتهامك .

أنت فوق جميع الشبهات . غافل المرأة ، وانقض عليها ، وجردها من كل ما تملك ، ثم سلمها لرجالك يفتكون بها . وهكذا تنقذ حياتك وتظفر بالثروة ولا تخون واجبك . هذا هو صوت المصلحة ، فانصت إليه ولا تكن غبياً . . .

الملك الأبيض : هنريك ، لا تهدم فى لحظة ما بنيت فى سنين . لا تسرق . قم بواجبك حالاً ولا تتردد . كن عفيفاً ونزيهاً . لا تقرب المرأة ولا تسرقها . اقهر حبك الأثيم لها ، وعاقبها فهى تستحق العقاب ، ثم احتجز مالها كى تضمه إلى خزانة الدولة كما فعل زعيمك . لا تسرق . لا تفكر فى المصلحة الملوثة أبداً . هناك أشياء أثمن بكثير من المصلحة وأغلى بكثير من المال . أشياء يجب أن نقدسها ولو لبثنا فقراء محرومين . أشياء بدونها تفقد الحياة قيمتها ، ويفقد الإنسان حقه فى الاعتزاز بأنه إنسان . فاسرع بتأدية ما عليك وكن رجل الواجب والنزاهة يا هنريك . كن إنساناً .

هنريك : لقد ضقت ذرعاً بإنسانيتى . ضقت ذرعاً بسعادة الواجب والنزاهة ، تلك السعادة الضيقة الخانقة المظلمة التى تطوينى على نفسى وتغلق دونى أبواب العالم ! . . .

الحواس : أنت على حق . ونحن الحواس نفتح أمامك هذه الأبواب . . . انظر . . . انظر إلى كاترين مقبلة عليك ترفل فى حلة جمالها الباهر وتقبلك قبلة الهوى والوفاء . . . أنتما فى مدينة بعيدة . . . فى مكان شائق ومأمون . . . فى حرم الحب الرائع . . . الرياش حولك ساحرة ، والطعام فاخر ، والشراب معتق ومجيد . . . كل ما تشتهيه يتحقق . . . المال بين يديك ، وكاترين تتلوى وجداً وهياماً بين ذراعيك . . فاحتفظ بها . . . فر معها . . . احتفظ بها يا أحمق ، ولا تتبتل للواجب . كن جسوراً ، فما فاز باللذة غير الجسور !

الملك الأحمر : تعجبني من الحواس عبارة « التبتل للواجب » . يبدو لي أنها على شيء من العمق . . .

الحواس : أليس كذلك ؟ . . .

الملك الأحمر : أخلق بها أن تكون شعاراً لأولئك العبيد المكفوفي البصر . الذين يكدحون لسواهم وما هم مصيبون من مأدبة الحياة إلا الفتات ! . كلا يا هنريك . دع العبيد يتبتلون للواجب ، واصغ إلى صوت الحواس وتمتع لأنك سيد لا عبد . . .

الملك الأبيض ساخطاً : ماذا تقول ؟ . . . كف عن الرجل . . . لا تشوش في ذهنه الأفكار والخيالات . . . لن تتغلب عليه وأنا حي ! . . . اسمع يا هنريك . إن السيد الحقيقي لا يتمتع بل يخدم ، وهو إن تمتع فيجب أن يبرر تمتعه بأن يبذل ويخلص ويخدم . فكن سيداً أصيلاً يملك حق التمتع ، لأنه يعرف عند الاقتضاء كيف يؤدي الواجب وكيف يخدم الآخرين .

هنريك : هذا كلام طيب أشعر أني مرتاح إليه . هو ذاك . السيد لا يملك حق التمتع إلا إذا خدم . . .

الملك الأحمر منفعلاً : اخدم الواجب إذن . اقتل كاترين . ولكن كيف يمكنك أن تتمتع بالحياة بعد ذلك ! . . . ستنتحر كما قلت . فتفقد نفسك بعد إذ تكون قد فقدت المرأة فيذهب انتحارك سدى .

الملك الأبيض : وحتى لو مات هنريك منتحراً ، فسيموت راضياً عن نفسه لأنه يكون قد أدى واجبه .

الملك الأحمر في تهكم : وكيف يموت راضياً وحسرة قتل من يحب تنهش صدره . كيف يموت راضياً بعد أن يكون قد دفن قلبه بيده ؟ . . لا . . . الرأي عندي أنا . . . الرأي السليم عندي أنا . . .

العقل : قل . . . تكلم . . .

الحواس : كلنا آذان صاغية . . .
هنريك : لا تعذبني وتكلم . . .
الملك الأحمر : الرأى عندى أن يرجع هنريك بعد فترة إلى بيته ، وأن يعرف كيف يمكر ويحتال ويموه . أليس هو رئيس الشرطة ؟ . . . إذن فني وسعه بأيسر مجهود ، وخدمة للمصلحة العامة أيضاً ، أن يضلل كاترين ، ويصدر أمراً زائفاً بالعفو عنها ، ويمهره بخاتم الدولة . وعندئذ ، عندئذ فقط ، تقتنع المرأة بأنه قد أنقذها . فتثق فيه ، وتهيم به ، وتندفع من تلقاء نفسها إلى أحضانه . ومتى فاز هو بها واستمتع وأرضى حواسه ، فسيجد فى نفسه الشجاعة ولا ريب للتضحية بها والتضحية بنفسه إن شاء . وهكذا يؤدى واجبه ثم يموت بعد أن يكون على الأقل قد تمتع ! . . .
هنريك هاتفاً : لله من عبقرى . ما أجملك فى توهجك الساطع الشبيه بضوء الشمس !
الملك الأحمر : كثيرون غيرك قالوا لى مثل هذا الكلام . . .
الملك الأبيض صارخاً : احذر يا هنريك .. إنه يخدعك . لو عرفت لذة امتلاك من تحب فلن تسلى تلك اللذة أبداً . لن يمكنك أن تعاقب المرأة بعد ذلك وان يمكنك أن تنتحر . ستفكر فقط فى أن تعيش ، وأن تضحى بكل واجب وكل شرف فى سبيل دوام تلك اللذة والحرص عليها وحدها !
هنريك متحمساً : كلا . . . كلا . . . سأمتلك كاترين ثم أقتلها . . . سأمتلكها ثم أقتلها وأنتحر !
الملك الأبيض : لن تستطيع . . . لن تقتلها ولن تنتحر ! . . . إنه يخدعك . . . يخدعك . . . استمع لى وأسرع . استقل هذه العربة حالاً ، واذهب وقم بواجبك دون أن تلوث نفسك . . . أسرع وإلا أهلكك ترددك . . .
الملك الأحمر لغريمه وهو يبتسم : دعه يلتقط أنفاسه ، ولا تفسد

عليه فرحته بفكرتى . لن يطيعك . أنت تقدم له الجمال البارد أما أنا فأقدم له الجمال الحار . . . تعال معى يا هنريك . . .

الملك الأبيض ممزقاً ثوبه : أتتبعه ؟ . . .

هنريك : ذلك حظى وليس منه مفر .

الملك الأبيض لغريمه : إلى أين تسوق الرجل ؟ . . .

الملك الأحمر : إلى الحانة قبل كل شيء . . . إلى الحانة حيث يجرع بضع كؤوس من الخمر تنعشه وتشجعه . . .

الملك الأبيض متشبثاً بهنريك : لا تستمع له . . . اذهب إلى البيت حالاً . . . ألتمس منك . . . اذهب مسرعاً وإلا ندمت .

هنريك : دعنى وشأنى . . . حلقى جاف . . . صورة الكأس المترعة تلمع أمام بصرى ، وتمدنى منذ الآن بالقوة وتحفزنى . أريد أن أتأهب لاستقبال نشوتى . . . هذه هى الحانة . . . وهؤلاء هم الأقوياء . . . خمراً . . . هات خمراً يا غلام . . . قدحاً آخر . . . وقدحاً أيضاً . . . وقدحاً للطريق . . . أين أنا ؟ . . . نعم . . . هذا هو الطريق . . . من هنا . . . سأراها . . . سأراها . . . السماء لم تعد تمطر . . . هذا فأل حسن . . . الغيوم تتبدد . وها هى ذى الشمس تبدو ثم تختفى . . . سوف تشرق . لابد أن تشرق . . . لله الله من عبقرى أيها الملك الأحمر الجميل ! . . . لا . . . لم يعد يتبعنى أحد . . . إن الملك الأبيض لمعتوه ! . كان يطلب إلى أن أقتلها وأنا لم أنعم بها ولو ميقات لحظة ! . . . تباً له من أحمق مأفون ! . . . ستكون لى ! . . . سأحظى بها ! . . . من هنا يا هنريك . . . من هنا إلى البيت . . . هذا أقرب طريق . . . ما أشوقنى لرؤيتها ! . . . ما أظمأنى إليها ! . . . يا لفرحتى ! . . . هوذا بيتى ! . . . هوذا الباب الحديدى والسياج العالى والبرج الشامخ العتيد ! . . . هأنذا يا كاترين . . . أتمنى لو صعدت الدرج فى قفزة واحدة ! . . . ماذا ؟ . . .

ماذا أرى ؟ . . . إن ابنى « أوجو » لمتهور ! . . . لماذا لم يغلق الباب الداخلى ؟ . . . « ويصيح » أوجو . . . أوجو . . . كاترين . . . أوجو . . . هذه الحجرة خاوية ! . . . وكذلك بقية الحجرات . لا أرى أحداً ! . . . أوجو . . . أين هما ؟ . . . كيف هذا ؟ . . . لا أحد فى البيت ! . . . رباه إلى أين ذهبت ؟ . . . أين ولدى ؟ . . . أين هى ؟ . . . وحدى ! . . . كيف يمكن . . . ماذا حدث ؟ . . . الصمت الرهيب يكتنفنى ، والصوت الوحيد الذى أسمعه ينبعث من فى المستصرخ العاجز ويكاد يمزق صدرى ! . . . ما هذا ؟ . . . ما الذى أراه على هذه المنضدة ؟ . . . كيس فيه مجوهرات ؟ . . . مجوهرات . . . ثم ما هذا ؟ . . . ورقة ؟ . . . ورقة بيضاء . . . ما الذى كتب فيها ؟ . . . آه يا هنريك . . الويل لك ! . . . الويل لك . . . تمزق . . . تقطع . . . انحن على الورقة المشئومة واقرأ . . . « وينحنى ويقرأ وهو مسلوب » . . . « اغفر لى يا أبت . لقد أحببت كاترين وهى أيضاً أحبتنى . ولقد فررنا معاً وتركنا لك بعض المجوهرات . إن حياتنا ومستقبلنا فى يدك . وفى وسعك إذا شئت أن تقبض علينا . فاغفر لنا ، وأصدر أمرك إلى رجالنا بأن يدعونا نجتاز الحدود بسلام . لا تعترض سبيلنا يا أبت وإلا قضيت على ابنك وحبيبتك على السواء . سامحنى ، فأنا شاب ، وهذا الحب هو اليوم كل حياتى . أما أنت فقد طالما تمتعت ، وطالما سعدت ، وفى مقدورك أن تعيش بالذكرى ، وأن تجد فى جهادك الوطنى ما يعوضك عما فقدت . فلا تتعقبنا بالقصاص وإلا أنكرت أبوتك ، وتجردت من إنسانيتك ، وقتلت فى لوثة الغيرة العمياء ولدك الوحيد . لا تقتلنى يا أبت . لا تقتل ولدك . لا تحرمنى نعمة الحياة . أنت الذى منحتنى حياتى فلا تأخذها منى وإلا مت وأنا ألعنك . . . » . . . « ويتلوى هنريك منسحقاً ويصرخ » آه . . . لا أرى شيئاً . . . الظلمة تعمى بصرى . . . ولدى يفعل هذا ؟ . . . ولدى الذى

كان هو صوت ضميرى وكان ينصحنى بقتل المرأة ، يفر معها ويسلبها منى ؟ ! . . . لقد أغرته الفاجرة واقتادته ! كيف وثقت أنا فيه ؟ كيف أمنته عليها ؟ كيف لم أتوقع منه شيئاً كهذا ؟ . . . كنت على يقين من صدق وطنيته ، وكنت فى الوقت نفسه لا أخاف من شبابه . . . كنت أحتقره . . . كنت أحتقر شبابه . . . كنت أنظر إليه كطفل غرير . . . كنت أنظر إليه من علياء قوتى وجمالى واعتزازى بما أحرزت حتى اليوم من نصر على أصلب وأفتن النساء ! . . . كنت من فرط كبرى لا أتصور أن فتى شائعاً مثله يمكن أن يجرؤ وينافسنى . . . يا لغرور الكهل وزهوه وخيلائه واعتداده بنفسه متى أحب ! . . . لقدْ لوّثت ولدى بيدى . . . وضعته تجاه التجربة وجعلت منه خائناً مثلى . فقهرنى بشبابه واحتفر لى منذ الآن قبرى ! . . . يا للطعنةِ الصادقة النجلاء ! . . لم أعد أحتمل . . . لا قوة لى . . . أنا خجل مما زعمت انه رجولتى ! . . . ألمى يخنقنى . الغيرة تنهشنى . . . عض شفتيك يا هنريك وابك . . . ابك ما شاء لك الحنق المرير . . . لقد خدعاك واحتقراك ولم يضنا عليك حتى بالمال ! . . . ما أجدرك بأن تظل إلى الأبد مثل الخديعة المروّع الحى ! . . . ابك . . . ابك . . .

الملك الأبيض : ألم أقل لك أن تسرع بتأدية واجبك وإلا هلكت .

هنريك منفجراً : وماذا تريد الآن منى ؟ . . .

الملك الأحمر — أعتقد يا هنريك أنه خير لك فى هذه اللحظة أن تنتحر !

هنريك بملء حقده ويأسه : لن أطاوعك بعد الآن ولو أغريتنى بملك الدنيا ! . . . لقد خدعتنى . . . نعم خدعتنى . . . ولكن أتظن أنك أجهزت علىّ ؟ . . . لا . . . أنى أصرخ فى وجهك الساعة وأقول : بوركت الخديعة أيها الملك الأحمر البغيض فقد ردت إلىّ قوتى ! . . .

سأجد فى أثر المجرمين ، ومن المحال أن يفلتا منى . وإذا كانت الغادرة تعتقد أن حرصى على حياة ولدى سيحميها من بطشى فهى واهمة ! . . . لم يعد لى ولد ! . . . لن أرحمها ولن أرحمه ! سأعيش لأرى مصرعهما ، ثم أعيش بعد ذلك مرتاح الضمير سعيداً ، واضعاً نصب عينى صورة هذا المصرع المزدوج ، متخذاً منه حافزاً كان ينقصنى لمواصلة الحياة والجهاد بهمة جبارة تطاول همة رئيسى ومحرر بلادى جوستاف العظيم ! . . . هذا عزمى ! . . .

الملك الأحمر : ألن تتحول عنه ؟ . . .

هنريك : كيف أتحول والخيانة الفاضحة تغلى فى دمى ؟ . . . ألا تصدقنى ؟ . . . سترى . . . تعال . . . تعال معى . تعالوا جميعاً . . . لماذا ينظر إلى كل واحد منكم وهو مروّع ومشدوه ؟ . . . اتبعونى . . . تقدموا . . . ما بالكم ترتجفون ؟ . . . تقدموا أيضاً . . . من هنا . أترون ؟ . . . هوذا البيت . . . بيت تابعى ورئيس مكتبى الملازم ادولف . . . « ويصيح منادياً وهو يختلج » : أدولف . . . أدولف . . . هذا أنت . . . اسمع . . . ارهف السمع ولا تتعجب . . . الخائنة كاترين أغوت ولدى . . . ولدى الوحيد . فخان هو أيضاً وفر بها لينقذها . فاجمع رجالك حالاً ، وأسرع بهم إلى الحدود ، وألق القبض على المرأة وعشيقها ، وسلم المجرمين إلى الزعيم جوستاف ! . . . هذا أمرى . . . انطلق . . . آه . . . أكاد أسقط . الدوار يعصف برأسى . . . ولكن لا . . . أنا سعيد . . . سعيد . . . الآن فقط أتنفس . . . الآن فقط أتحدى . . . الآن فقط أستطيع أن أنصب قامتى وأواجه الناس وأقول إنى سعيد . . .

الملك الأحمر : أتظن ؟ . . .

هنريك : بل أنا واثق . . .

الملك الأحمر : لا تخدع نفسك .

هنريك : ماذا تقول ؟ . . .

الملك الأحمر : أنت تتعذب . أنت تتعذب الآن كما لم تتعذب أبداً . . .

هنريك : اغرب عني .

الملك الأحمر : تتعذب لأنك تشعر وتدرك . . . تدرك تماماً أنك لم تفعل ما فعلت عن واجب وطني بل عن رغبة في الانتقام . شهوة الانتقام لكمدك وغيظك وهزيمتك في حبك ، هي التي دفعتك إلى ما فعلت لا الواجب . هذا ما يعذبك . ولسوف تتعذب أيضاً . وتتقطع أيضاً . لن تعرف نعمة الراحة أبداً يا هنريك . . .

هنريك : اصمت . . . أقول لك أصمت . . .

الملك الأحمر ضاحكاً : ولكني سأنقذك . . .

هنريك يتطلع إليه مذهولاً — فيم تفكر ؟ . . .

الملك الأحمر — ألم تفهم بعد ؟ . . .

هنريك وهو يرتجف — أشفق عليّ . . .

الملك الأحمر : وهل أنا أريد غير هذا ؟ . . .

هنريك : وماذا تريد بي ؟ . . .

الملك الأحمر : تقدم . . . تقدم أنت . . . « وينظر إلى العقل الصامت المتنبه المرتعد ويقول » غداً ، بعد أن ينفذ حكم الإعدام في حبيبة هذا الرجل وفي ولده الوحيد ، تغادر أيها العقل جمجمة هنريك وتتبعني . . .

هنريك في توسل المذعور : لا . . . لا تأخذ العقل مني . . . إنه الحياة ! . . .

الملك الأبيض : هذا عقابك . . . لماذا ترددت في تأدية واجبك . كان ينبغي أن تكون منذ البدء بطلاً !

هنريك : لقد حاولت . . . حاولت . . . ولكنى لم أستطع أن أكون غير إنسان . ومع ذلك فأنا لست بنذل . ولقد ضحيت أمامكم بابنى الوحيد . فاشفع لى عند هذا الملك الجبار وقل له أن يرحمنى . . .

الملك الأبيض : فات الوقت يا هنريك . . .

الملك الأحمر مقهقهاً : لا تحزن يا صاحبى . . . الجنون هو الذى سيرحمك من الحياة ! . . .

« فيرسل هنريك صرخة مدوية ، ويقع على الأرض مغشياً عليه . »

من تاريخ إيطاليا

قلوب الفدائيين

كانت حرب الاستقلال الإيطالية دائرة الرحى فى سهول مقاطعة « لومبارديا » عام ١٨٢٠ بين الفدائيين المنتمين إلى هيأة المقاومة السرية فى إيطاليا ، وبين رجال الجيش النمسوى الذين احتلوا هذه المقاطعة . ففى غضون تلك الحرب وقعت فى قرية إيطالية مجاورة لسهول لومبارديا ، حادثة غريبة سجلها معظم المؤرخين وذهبت مثلاً فى صدق الوطنية .

* * *

كان ذلك فى حجرة كبيرة فى منزل عمدة القرية . وكان عن يمين الحجرة باب يؤدى إلى مخدع النوم . وعن اليسار باب كبير يفضى إلى الخارج ، وعلى مقربة منه نافذة مفتوحة تطل على حقول القرية . وكان الناظر يلمح فى إحدى زوايا الحجرة باباً آخر منخفضاً ومقوساً يبدو منه سلم خشبى صغير يؤدى إلى قبو عميق حافل ببراميل وزجاجات خمر معتقة اعتصرها رب الدار من الكروم التى يملكها فى القرية .

وكان الوقت ليلاً وأشعة القمر تنصب من النافذة وتغمر الحجرة ، وسيلفيا بنت العمدة صاحب الدار تتجه بخطى متلصصة نحو باب القبو ، وفى يدها منشار صغير ، وبصرها الزائغ يرمق النافذة المفتوحة .

وهتفت الفتاة تخاطب نفسها : « لن أصبر بعد الآن لحظة واحدة ! . ذلك الضابط النمسوى السفاح يجب أن يأتى مصرعه الليلة ! . . . لقد قتلنا

منهم ثلاثة فافتدوا رجالهم بأن قتلوا منا ثلاثين ! . . . وهذه المجزرة المروعة كانت بأمر الضابط ! . . . لن تطلع شمس الغد حتى تكون القرية قد تخلصت منه ! . . . »

وأوصدت النافذة ثم أسدلت عليها الستار وكرت راجعة إلى باب القبو ، وانحنت على السلم الخشبي ، وأخذت فى نشر إحدى قوائمه وهى تلهث وتستطرد التحدث إلى نفسها : « ما أشد حب ذلك الضابط السفاح للخمر ! . . . إنه لا يعب منها بل يلغ فيها كما يلغ الحيوان فى الدم . إنه يزورنا كل ليلة ويبتلع أجود وأندر ما فى قبونا من زجاجات النبيذ . . . وسيكون هنا بعد لحظة ، وسيقتحم القبو كعادته . ولكنه لن يشرب من خمرنا بعد اليوم جرعة واحدة ! . . »

وعكفت على عملها فى دأب وإصرار ثم نهضت وقد أبرقت أساريرها ، وأسرعت إلى مخدع النوم لتخفى المنشار الصغير ، ثم عادت مبتهجة ، وفتحت النافذة ، ومدت المائدة الكبيرة ، ثم جعلت تعد عليها مختلف ألوان الطعام .

وانقضت فترة وجيزة ثم دخل والدها السنيور ألفونسو عمدة القرية وهو شيخ فى السبعين ، يتبعه الشاب الجميل سلفاتور ، ووالده التاجر الثرى السنيور برانتانو ، فخفت الفتاة لاستقبالهم وعلى شفتيها ابتسامة قريرة هادئة .

قال العمدة :

ـــ لم نستطع إقناع الضابط السفاح وحلم بإطلاق سراح الشبان الإيطاليين الخمسة الذين اتهمم المجلس العسكرى بتدبير الكمين للقافلة النمسوية . لقد دافعت أنا عنهم ، وأثبت للمجلس أنهم أبرياء ، وأنهم ما وجدوا بقرب القافلة إلا اتفاقاً . ولكنهم أبو الإصغاء إلى وأدانوهم ...

فعقب برانتانو قائلا :

ـ وعلمت أنا أن حكم الإعدام سينفذ فيهم بعد أسبوع .

فصاح العمدة وقد أمضه الالم :

ـ إن قلبي ليتمزق شفقة عليهم . ولكن ما حيلتى ونحن فى حرب تحرير قاسية وغير متكافئة .

فأطرقت سيلفيا قليلاً ثم قالت :

ـ أجل . إنهم اليوم أقوى منا . إنهم يرا كمون الأشلاء والضحايا أملاً فى زعزعة كفاحنا و إلقاء الرعب فى قلوب المقاتلين منا . ولكننا لن نضعف. لن نسلم . وكلما ازدادوا هم تنكيلاً بنا ازددنا نحن إيماناً بأنفسنا . إن سهول لومبارديا ملآى الآن بالفدائيين ولن يضع الفدائيون السلاح حتى يتم استقلال إيطاليا ! . . .

فجعل التاجر الثرى برانتانو يهز رأسه وهو يقول مؤمناً على كلام الفتاة ومستدركاً لبعض ما فيه من تهور :

ـ نعم . . . ولكننا نحن فى غضون ذلك نكون قد فقدنا كل ما نملك وأصبحنا فقراء ، وغير واثقين فى الوقت نفسه من أن النصر يمكن أن يحالفنا . . .

فردت سيلفيا فى عنف :

ـ أى كلام هذا الذى تقوله يا سنيور برانتانو ؟ . . . ليس من الشجاعة ولا من النخوة أن نفكر تفكيراً طبقياً والوطن فى خطر. أنت تفكر الآن فى طبقتك فقط ، وفى مصالحك فقط . ولكن اعلم أنه لو انتصر النمسويون علينا ، فلن يبقوا على رفاهية طبقتك إلا إذا حالفتهم هذه الطبقة ورضيت أن تشاركهم فى استعباد الشعب . فهل ترضى أنت بمحالفة العدو على إذلال شعبك ؟ . . . هل ترضى بأن تكون والضابط النمسوى السفاح سواء ؟! . . . أجبنى ؟ . . .

فرد برانتانو فى هدوء:

ـ يا بنيّ إن إيطاليا ضعيفة ، وطبقتها العالية قد تنقذها . وهذه الطبقة الغنية العامرة بالمحنكين من أهل السياسة هى التى يمكن أن تستعيض بالعقل عن السيف ، وتصل بالحكمة والدهاء إلى اتفاق معقول يصون مصالح الشعب .

فصاحت سيلفيا فى غضب :

ـ بل يصون مصالحها هى لأنها تعتقد أن الشعب ممثل فيها وحدها . كلا يا سيد برانتانو . إن الشعب ممثل فى الفدائيين ، ومعظم الفدائيين فقراء ، والفقراء ينشدون استقلالاً كاملاً ، وليس فى وسع طبقتك أن تردهم عن عزمهم وتحول بينهم وبين مواصلة الجهاد .

فصاح برانتانو محتداً :

ـ ولكن . . .

فتدخل الشاب سلفاتور وقاطع والده وهو يقول فى ابتسامة ساخرة :

ـ دعها يا أبى . . . إنها تتنكر لطبقتها ومع ذلك فهى ستتزوج منها . . . أليست خطيبتى أنا ؟ . . . لماذا اختارتنى ولم تختر شاباً فقيراً من أبناء الشعب ؟ . . . إن روح الطبقة فى دمها وليس من اليسير عليها أن تخون هذه الروح .

فتأملته الفتاة فى هدوء وقالت :

ـ أنا لم أنظر إلى مكانتك يا سلفاتور ولا إلى مالك . وإذا كنت قد رضيت بك زوجاً ، فذلك لأنى أحببتك .

فهتف الشاب :

ـ وواجب الحب يقتضيك أن تحرصى على طبقتى التى توشك هذه الحرب الطائشة الحمقاء أن تقضى على جميع مصالحها .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

ـ لا . . . لا أضحى بمستقبل شعب من أجل مصلحة طبقة .

فردد التاجر برانتانو منفعلاً :

— ولكن . . . ولكن . . .

فقال العمدة :

— كفى . . . كفى . . . تفضلوا . . . ولنجلس إلى المائدة قبل أن يباغتنا الضابط السفاح . سيكون هنا بعد قليل ، وسيقتحم القبو كعادته ، وينتقى منه أجود الخمور ، ويظل يعب فيها حتى يفقد صوابه . فرجائى إليكم ألا تتبرموا به ، وأن تحسنوا استقباله وإلا فقد يثور ثائره وينتقم منا بأن يمعن فى البطش والتنكيل برجالنا . تفضلوا . . .

فجلس الجميع حول المائدة ، وشرعوا فى تناول الطعام ، وسيلفيا تحدق إلى باب القبو تارة ، وتختلس النظر إلى النافذة المفتوحة أخرى ، وتحاول جهدها أن تضبط أعصابها وتتهيأ لتحمل عواقب الخطة التى أقدمت على تنفيذها . وفجأة سمع طرق على الباب . فتلفتت الفتاة مذعورة وجمدت . وصاح العمدة : « من الطارق ؟ » ثم نهض بنفسه ، وفتح الباب الأيسر . ولكنه تراجع مذهولاً وتمتم :

— من . . . أنت ؟ . . . ماريو ؟ ! . . .

فانبعث صوت من الخارج يقول :

— عفواً يا سيدى العمدة . . . لحظة واحدة . . . امنحنى لحظة واحدة . . .

فأفسح له العمدة الطريق . فدخل رجل محدودب الظهر ، مشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، معصوب الساق بقطعة من قماش متسخ . ثم ارتمى على مقعد ، وأجال الطرف حوله وهو ينتفض من شدة البرد ثم استقر بصره على العمدة وقال :

— أنا قادم من الميدان يا سيدى . . . من سهول لومبارديا . . . تركت الميدان عند الفجر وقطعت الطريق سيراً على قدمى ! . . . غافلت الحرس

النمسوى ، وانحرفت ودخلت القرية من الطريق الشرقى المهجور لا من الطريق العام . . . ثلاثة أسابيع وأنا أقاتل قتالاً وحشياً منقطع النظير! . . أقاتل فى غمرة البرد والمطر . . . لم تذق عينى طعم الرقاد الخالص . . . لم أبرح خندقى إلا لأرتد إليه ! . . . لم أتبلغ طوال جهادى بغير الخبز الأسود ، والجبن المتعفن ، والأرز المملوء بالحصى ! . . . ولكنى قتلت من أعدائنا أربعة جنود وثلاثة ضباط . . . ثم أصبت فى ساقى ، فانهارت قواى ولم أعد أصلح للكفاح ، فانثنيت راجعاً إلى قريتى . . . فأنا الآن يا سيدى العمدة لا أملك شيئاً . . . كل ما كان معى وكل ما منحتنى إياه هيئة المقاومة أنفقته فى الميدان عن آخره . فرجائى إليك يا سيدى أن تقرضنى بعض المال ، أستعين به على الحياة ، ريثما أعود إلى عملى فى المزارع ، وأستطيع أن أحتطب وأكسب قوتى وقوت امرأتى وولدىّ ! . . . ألتمس منك ألا تخيب سؤلى وتدعنى أنصرف يائساً ! . . .

واستمع العمدة إلى حديث الرجل ثم تفرس فيه لحظة وهمهم فى سكون :

ــ تنصرف ؟ ! . . .

فأجاب الرجل :

ــ أجل . أريد أن أرى امرأتى وولدىّ .

فقال العمدة وهو ما يزال يتفرس فيه :

ــ أيعرفك الضابط النمسوى وجلم ؟

فأجاب ماريو :

ــ كل من فى القرية يجهل أنى من الفدائيين . وأما الضابط فلم يرنى أبداً لانى التحقت سراً بهيئة المقاومة قبل أن يحتل النمسويون القرية ويعين الضابط حاكماً عليها .

فأطرق العمدة ثم قال :

ــ ومع ذلك فالأمر خطير . . . وإذا كان فى مقدورى أن أعطيك

مالاً ، فليس فى وسعى وقد أصبحت هنا أن أدعك تنصرف وفق هواك . . لو خرجت الآن من بيتى ، فقد يباغتك الحرس ويشتبهون فيك ، ويتهموننى بأنى قد آويتك فى منزلى . . . وأنا رجل مسئول أريد أن أعاون الفدائيين ، ولكنى أريد فى الوقت نفسه أن أظل محتفظاً بثقة المحتل . . . هذه سياستى بل سياسة الحكومة . وإذن فيجب أن تبقى الليلة هنا . . . أتفهم . . . على أن هذا أيضاً لا يكفى . . . الضابط وطلم سيزورنا بعد قليل ، وقد يشتبه هو أيضاً فيك نظراً لمظهرك الذى يبعث على الريبة . فخير ما يمكن أن أفعل لمصلحتك ومصلحتى هو أن أبدل معالمك وأضمك إلينا . . . فتعال . . . تعال وادخل مخدعى ، وانفض عنك هذه الأسمال . سأعطيك ثوباً من أحدث وأجمل أثوابى ، وستظل معنا الليلة . ولو استفسر الضابط عنك فسأقول له إنك من أقربائى . . . تعال . . .

وقاده إلى المخدع ودخل به إليه ثم أعاده بعد لحظة فى حلة نظيفة أنيقة وتأمله وهو يبتسم مرتاح البال وقال :

ـــ اجلس هنا كأنك منا . . . شاركنا فى الطعام والشراب . . . سأقرضك المبلغ الذى تريد . ومتى طلع الفجر وانصرفت دورية الحرس ، تركتك تعود إلى بيتك ثم عاونتك حالاً على إيجاد عمل أفضل فى قرية أخرى .

فانكب ماريو على المائدة ، وأخذ فى التهام الطعام وهو شارد . فمال إليه الشاب سلفاتور وقال :

ـــ وكيف حال رجالنا فى الميدان ؟ . . . أتظن أن فى مقدورهم التغلب على العدو ؟ . . .

فأجاب ماريو فى هدوء :

ـــ النصر شىء والقيام بالواجب شىء آخر .

فتطرح سلفاتور فى مقعده وقال وهو يهز كتفيه :

— ولكن أية قيمة لواجب يتطلب تضحيات خارقة ولا يزينه ويشجع عليه يقين من النصر ؟ . . .

فنظر ماريو إلى محدثه منفعلاً وأجاب :

— اليقين فى قلوبنا يا سيدى . وما دمنا نحرص على يقين القلب ، فالنصر لابد أن يحالفنا إن عاجلاً أو آجلاً .

فقال سلفاتور فى سخرية :

— أنت رجل مثالى .

فرد ماريو على الفور :

— أجل . ولا أعتقد أنك أنت من دعاة الهزيمة ! . . .

فأشرق وجه سيلفيا ، ومدت يدها إلى ماريو وصافحته وقالت :

— ما شككت أبداً فى أن جميع المقاتلين من رجالنا هم على مثل إيمانك يا سيد ماريو . ولكنى وقد رأيتك وسمعتك ، ازددت ثقة فى المستقبل ويقيناً بقرب النصر .

وانحنت عليه تخدمه وتقدم إليه ألوان الطعام بنفسها وهى تتأمله فى احترام وإعجاب . ولكى تحكم الصلة الروحية بينها وبينه ، نهضت بغتة واقترحت عليه أن تعزف له فى نغم خفيض نشيد الفدائيين . فابتسم لها شاكراً . فاتجهت نحو المعزف وفتحته ، وشرعت فى العزف . وفى تلك اللحظة ، سمع عن بعد صوت طلق نارى أعقبته صرخات طويلة متقطعة . فلم يجزع ماريو ولم يضطرب بل هز رأسه مغتبطاً . أما الجميع فبهتوا وجمدوا فى أماكنهم فترة . ثم أسرعوا إلى النافذة المفتوحة ، وأطلوا منها ثم تراجعوا واجمين . فأوصد العمدة النافذة ، وأشار إليهم بالتزام الصمت والجلوس حول المائدة . فجلسوا وأبصارهم الزائغة متجهة إلى الباب ، وآذانهم المرهفة تنصت إلى كل صوت ينبعث من الخارج ويترامى إلى الحجرة الساكنة . . .

وانقضت لحظات ثم فتح الباب الأيسر فى عنف ، ودخل منه الضابط النمسوى وهلم ، جاحظ العينين ، محتقن الوجه ، وصاح بصوت غليظ وهو يهدر :

ــ ألن تضع حداً لهذه الحال يا سيدى العمدة ؟ . . . أنت المسئول عن حمايتنا ! . . . أنت المسئول عن أهل قريتك . لقد اغتالوا الآن جندياً آخر من جنودنا ! . . . لم يتعظوا بمسلكى ! . . . لم يكترثوا بما أنزلته بهم من عقاب ! . . . ولكنى فى هذه المرة لن أسدد الضربة إليهم ! . . . أتفهم . . . لن أقتص من فلاحين متعصبين وأغبياء . لن أقتل منهم عشرة مقابل واحد سأسحق الرأس فى هذه المرة . سأسحق رأساً خليقاً بأن يصبح مثلا وعبرة ! . . . وأكبر ظنى أنى سأقر العدل والنظام وأنقذ حياة رجالى . . .

فاتجهت سيلفيا نحو الضابط ، وقالت فى رقة ودماثة وهى تربت على كتفه وتطوّق ظهره بذراعها :

ــ هدئ من روعك يا سيدى الضابط وتفضل . . . تفضل بتناول الطعام معنا . . . سيعاونك والدى فى القبض على القاتل وسيودع السجن كل من تشتبه أنت فيه . وإذا شئت أن تفتدى القتيل فى هذه المرة بعشرين من أهل قريتنا فلك ذلك . . . ولكن هدئ الآن من روعك ، واصبر حتى الصباح ، وتعال . . . تعال فرّج عن نفسك . . . ما تزال خمرنا من أشهى الخمور وأندرها . . . تعال واهبط القبو كعادتك ، وتخير من أجود الزجاجات ما تشاء . . . تعال . . .

وجذبته نحو القبو وهى تميل إليه فى دلال وبدنها يرتجف وعيناها تلمعان . ولكن الضابط أقصاها عنه فى أدب ثم حدق إليها تحديقاً صارماً ، وقال وقد استعاد هدوءه وبدت فى عينيه نظرة باردة مخيفة لم تعهدها فيه الفتاة من قبل :

ــ ليس الوقت وقت مجاملة يا آنسة . إن حياة رجالى أمانة فى عنقى . ولو تهاونت فى الذود عنها تنكرت لواجبى ، وغامرت بمنصبى ، وبكل ما أديت لبلادى من خدمات . ففى المسألة الآن موتى أنا أو حياتى . ويجب ، يجب أن أضع حداً لكل هذه الاغتيالات . ولقد عزمت . . .

فتطلعت إليه الفتاة وقالت :

ــ وعلام عزمت يا سيدى ؟

فأجاب الضابط فى صوت قاطع جهير :

ــ عزمت أن أقتص من الرؤوس لا من الأذناب . عزمت أن أقتص منكم أنتم عيون القرية ووجهاؤها ! . . .

وأردف وقد وقعت عينه على ماريو :

ــ من هذا الرجل ؟ . . .

فأجاب العمدة :

ــ هو ابن عمى . . .

فقال الضابط ونبرات صوته تزداد حدة وتصميماً :

ــ عظيم جداً . فاسمعوا . لقد قتل القرويون جندياً من جنودى ولكنى لن أفتديه هذه المرة بعشرة من الفلاحين بل بإنسان واحد ممتاز ، إنسان واحد فقط . على شرط أن يكون منكم . . . منكم أنتم . . . أنتم الخمسة ... أنتم الصفوة الممتازة فى هذه القرية ! . . . فأمامكم الآن ساعة . . . ساعة واحدة فقط . . . تختارون فى أثنائها الفدية المطلوبة ، وإلا افتديت الجندى النمسوى القتيل بكم أنتم الخمسة جميعاً ! . . . سأنتظر قراركم فى مكتبى . فأنعموا النظر فيه وطاب ليلكم ! . . .

وخرج الضابط ، ونظر العمدة وبرانتانو وسلفاتور بعضهم إلى بعض ذاهلين غير مصدقين ، وماريو منصرف عنهم إلى تناول الطعام ، وسيلفيا وقد تولاها الحنق على نفسها والسخط على الضابط ، تتفرس فيهم وتتأمل

عيونهم المندلعة ، وأفواههم المفغورة ، ووجوههم الشاحبة الممتقعة التى استغرقها تفكير طارئ عميق تتنازعه عوامل الحيرة والرعب .

وبعض لحظات مليئة بالقلق والخوف والتوجس ارتفع فى بطء صوت العمدة قائلاً :

— هذا قضاء مروّع ! . . . قضاء لا حيلة لأحدنا فيه ! . . . الساعة عصيبة . وإنها لساعة فاصلة فى مصيرنا جميعاً ، فإما أن نقبل الموت ، وإما أن نقبل التضحية بواحد منا ! . . . يجب أن نسلم ونتشجع ! . . . وأنا . . . أنا أقسم لكم بالله العظيم وبابنتى الوحيدة أنى لو لم أكن عمدة هذه القرية والمطالب بإقرار سلطان الحكومة الإيطالية فيها ، ما ترددت لحظة واحدة فى افتدائكم جميعاً والتضحية بنفسى ! . . . ولكنى مجبر . . . مجبر على التشبث بحياتى لأتمكن من إداء واجبى . . .

فنظر إليه التاجر برانتانو وتفرس فيه ثم تاهت نظراته بين الجميع وهو يصرخ :

— ولكن ما ذنبنا أنا وولدى ؟ . . . أنا تاجر أخشاب ولست من محترفى السياسة وأنتم تعرفون صدق وطنيتى ، وتعرفون أنى طالما سخوت بمالى على المشروعات العامة . . . غير أنى لم أحمل السلاح أبداً ضد النمسويين ، ولم أشترك فى أية مظاهرة سياسية . وأما ولدى فهو صورة مصغرة منى . وإذن فلماذا يجب أن نضحى بحياتنا ونحن أبرياء ؟ . . . ثم لو مت أنا فماذا يمكن أن يحل بتجارتى ؟ . إن الخراب يتهددنى ويتهدد أسرتى . . . لقد عقدت صفقة أخشاب أخيرة ، ولكنى لم أقبض بعد ثمنها . . . كلا . . . كلا . . . لا أقبل أن أكون كبش فداء لا أنا ولا ولدى ! . . .

وانبعث صوت الشاب سلفاتور رقيقاً وادعاً واثقاً :

— كان بودى أن أكفيكم مئونة هذه الحيرة الأليمة وأن أكون أنا الضحية . . . ولكنى لا أستطيع . . . لا أستطيع لأنى لا أفكر فى نفسى

بل أفكر فى مصير سيلفيا ! . . . إنى أحبها ، وأريد أن أعيش من أجلها ! . . . أريد أن أعيش لاقترن بها وأسعدها ! . . . أنسيت . . . أنسيت يا سيدى العمدة أنك يجب أن تضع مستقبل ابنتك فوق كل اعتبار ؟ . . .

فنظر إليه العمدة وهو يردد :

ـ ابنتى ؟ . . . نعم . . . أعرف ذلك . . . إنها لن تجد فى القرية كلها زوجاً أوفر منك مالا ، وأسمى مكانة ، وأشد إخلاصاً .

فصاح التاجر على الفور :

ـ إذن فأنت يا سيدى العمدة ، أنت الذى يجب أن تضحى بنفسك من أجل ابنتك ! . . . فى وسع أى وجيه من وجهاء القرية أن يشغل منصبك . . . فقم بواجبك يا سيدى واطمئن على مستقبل سيلفيا ! . . . اطمئن على مستقبلها تماماً ! . . .

فردت سيلفيا فى صيحة باترة :

ـ لا . . . لن يكون والدى هو الضحية ! . . .

فقال العمدة فى هدوء :

ـ إن مستقبلك أعز علىّ ألف مرة من حياتى .

فقالت سيلفيا :

ـ هذا لن يكون ! . . .

فصاح التاجر برانتانو :

ـ بل هذا لا مفر منه ! . . .

فارتفع صوت سيلفيا ثابتاً :

ـ أبداً ! . . .

فحدق إليها برانتانو وقال :

ـ فكرى وتعقلى . . .

فتحولت عنه سيلفيا ساخطة وأردفت :

ـ إذا سلمت بأن يقتل والدى فلن يعزينى عن فقده شىء ولو أوتيت ملك الدنيا .

فجعل برانتانو يتأملها فى كمد وغيظ ، وراح يتمشى فى الحجرة ويدور فيها كأنه سجين فى قفص ، ثم أجال بصره فى الجميع لحظة حتى استقر به فجأة على ماريو فصاح :

ـ ولماذا . . . لماذا لا تتقدم أنت أيها الوطنى المجاهد فتضيف مأثرة عظيمة إلى سابق مآثرك وتموت بطلاً ؟ . . .

فتطلع إليه ماريو فى دهشة وقال :

ـ أنا ؟ ! . . . ولكنى قمت بواجبى على خير وجه يا سيدى . لقد تصديت لأعداء بلادى ، وقتلت نفراً منهم ، وجرحت وأنا أقاتلهم . وأما أنتم فماذا فعلتم ؟ . . . ماذا فعلت طبقتكم اللاهية العابثة المترفة ؟ . . . الفقراء هم الذين ضحوا . فالدور الآن دوركم . وإذا شئتم أن تعرفوا رأيى فأنا أقوله فى صراحة ولا أبالى . الشباب هو الذى يجب أن يكون القدوة ، وابنك السيد سلفاتور هو الذى يجب أن يتقدم ! . . .

فقال سلفاتور صارخاً وهو يرتعد :

ـ أتخلى عن سيلفيا ؟ . . . هذا فوق طاقتى ! . . . إنى أحبها ! . . . إنى أعبدها ! . . . ومن أجلها أريد أن أعيش ، ومن حقها أن أحرص على حياتى كى أسعدها ! . . .

فاتجهت سيلفيا نحو سلفاتور وتأملته طويلاً ثم قالت فى هدوء :

ـ إذا كنت حقاً تحبنى ، فأنت ، أنت الذى ينبغى أن تتقدم ! . . . هذا هو الحب الخالص فى أسمى مراتبه بل هذه هى الوطنية فى أروع صورها ! . . . كيف يمكن أن أسعد فى المستقبل معك ، وأنا أعلم علم اليقين أنك تنكرت فى مثل هذه الساعة لواجبك ، ولوثت نفسك بالعار ،

وأبيت أن تجود بحياتك فى سبيل وطنك ؟ ! . . . كن خليقاً بحبى وإكبارى يا سلفاتور ! . . . دعنى أقول إن الرجل الذى أحبنى كان بطلاً وشهيداً ! . . . واعلم أنك لو تشجعت الآن وأقدمت ، فلن أعرف فى حياتى رجلاً غيرك ، وسأظل إلى الأبد عذراء طاهرة وفية لحبك وذكراك ! . . .

وفى نبرة جمعت بين الخوف والحرج انطلقت كلمات سلفاتور :

ـ لا أستطيع أن أسومك هذا القضاء الفاجع . . .

فقالت سيلفيا :

ـ أنا راضية به لنفسى .

فعاجلها الشاب بقوله :

ـ محال ! . . . هذا محال ! . . .

فنهضت سيلفيا وقد التمعت عيناها ، وقالت فى ثبات :

ـ إذن فالفدية المطلوبة ستكون أنا !

وارتمت على صدر والدها وقالت :

ـ الوداع يا أبى .

فأمسك بها سلفاتور وصرخ :

ـ سيلفيا . . .

فرددت الفتاة :

ـ هذا عزمى ! .

فاندفع والدها نحوها وقال :

ـ وأنا ؟ . . . ماذا يمكن أن يحل بى لو فقدتك . هل تتصورين أنه سيكون فى مقدورى أن أعيش ؟ كلا يا سيلفيا. ما حياة الوالد إلا تضحيات متواصلة فى سبيل ولده . إن سلفاتور وأباه لعلى حق . وأنا ... أنا الذى سيمضى . . . أنا الذى يجب أن أموت ! . . . لن أدعك تبرحين هذه

الدار وفى صدرى نسمة من حياة .
فنصبت الفتاة قامتها وقالت فى عزم راسخ :
– بل سأبرحها ولو قتلتنى أنت قبل أن يقتلنى الضابط السفاح !
فثارت ثائرة الوالد وصاح بابنته :
– لا تعترضى مشيئتى . لا أريد أن أكرهك وأبرأ منك قبل أن ألفظ النفس الأخير . . . مكانك هنا . . . إياك أن تخرجى . . .
وفى تلك اللحظة فقط اندفع ماريو نحو العمدة وقال وهو يحدق فى الفتاة :
– إذا كان ضمير السيد سلفاتور الذى يزعم أنه يحبك يطاوعه على موتك أو على حرمانك من والدك ، فضميرى أنا لا يحل هذا ولا يقبله ! . . . سلفاتور هو الذى كان يجب أن يكون الضحية . ضحية الوطن وضحية الحب . أما وهو الآن يتنصل ويراوغ ، وينشد الفوز بحياته على حساب خطيبته أو والدها ، فمن الواجب أن يتقدم رجل آخر ، أن يتقدم فدائى أنبل نفساً من سلفاتور وأنزه عاطفة وأكرم خلقاً . . . رجل يلبى نداء الواجب ، ويحاول أن ينقذ مستقبل فتاة مسكينة وحياة شيخ فى السبعين! . وهذا الرجل هو أنا . . . أنا أيضاً . . . أتسمعون ؟ . . . أنا الذى سأقدم نفسى ! . . . أنا رجل فقير . . . أية قيمة لحياتى ؟ . . . كان يمكن أن أفقدها فى ميدان القتال . . . على أن هذا أيضاً ميدان قتال بل هو الميدان نفسه ، ومن حق الوطن علىّ أن أستهدف لناره ولو مت فيه شهيداً ! . . . سأذهب إلى الضابط وأسلم نفسى . ولكنى أوصيكم فقط بزوجتى وولدى . إنهم أمانة فى عنقك يا سيدى العمدة . وأما أنت ، أنت يا آنسة فغاية ما أطلب إليك بعد أن أنقذت حياتك هو أن تحرصى عليها ، ولا تمنحيها أبداً لهذا الشاب المراوغ المخاتل الجبان المدعو سلفاتور ! . . . وداعاً . . .
واتجه نحو الباب . فصرخت سيلفيا ، وتشبثت به وقالت :

ـ هذا يفوق حد التصور . لا يمكن أن ينصب الهلاك كله على رأس رجل واحد .

وتحولت الفتاة نحو سلفاتور وأردفت :

ـ أتصمت ؟ . . . أتهون عليك نفسك إلى حد التضحية بمثل هذا الرجل ؟ . . .

ـ كل تضحية تهون فى سبيل احتفاظى بك . . .

فرددت سيلفيا :

ـ التمس . . . ألتمس إليك ألا تدعه يخرج .

فقال سلفاتور :

ـ لن أحرك ساكناً ولو أصبحت من أجلك أذل أهل الأرض جميعاً .

فصاح ماريو وهو يقهقه :

ـ إنه يعبدك ! . . . إنه يبيع وطنه وشرفه وكرامته وكل شى لأنه يعبدك ! . . . طريقاً ! . . . وليملأ هواء النار المنقذة صدرى وإلا اختنقت هنا اشمئزازاً وتقززاً ! . . . طريقاً . . .

ودفع عنه الفتاة وانطلق إلى الخارج . فاستهول العمدة ما وقع ، وهم بالخروج فى إثر ماريو . ولكنه أنعم النظر فى ابنته فارتد واهناً واستند إلى الحائط خشية أن يسقط . أما سلفاتور فأومضت عيناه . وأما التاجر برانتانو فتنفس الصعداء . ثم أسرع الابن وأبوه وأحاطا بسلفيا ، وأقصياها عن الباب ، وجعلا يطيبان خاطرها ويعللانها بزواجها المقبل وهنائها المكفول .

وانقضت فترة طويلة ، ثم ترامى إليهم صوت الضابط يأمر جنوده بإطلاق النار على ماريو . . . وأطلقت النار . . . فأخفت سيلفيا وجهها بين كفيها وانهارت فجأة على مقعد وأجهشت بالبكاء . فأقبل عليها سلفاتور وجثا عند قدميها ، وطوقها بذراعه ، وحاول جهده أن يسكن روعها .

فرفعت إليه الفتاة بصرها الشارد ، ورمقته بنظرة ، ثم حدقت فيه طويلا ، ثم غالبت نفسها والتصقت به ، وألقت برأسها على ذراعه وابتسمت فجأة له . فبهت الشاب ، وتهلل محياه ، وانحنى عليها وقبل يدها . فأرسلت سيلفيا أنة مستطيلة ، ولمعت عيناها وغمغمت وهى ما تزال تحدق فى الشاب :

ـ أشعر بتعب شديد . . . صدرى ضيق . . . بى حاجة إلى التفريج عن نفسى . . . اذهب . . . اذهب يا سلفاتور . . . إلى هناك . . . إلى القبو . . . واسعفنى . . . أسعفنى بكأس من النبيذ . . . النبيذ الأبيض المعتق الذى أحبه . . .

فنهض الشاب مسرعاً . فاتبعته سليفيا النظر وهى ترتعد وتنكمش وتجاهد كى تظل فى مكانها . وما إن وصل سلفاتور إلى باب القبو ، وانحنى ، ووضع قدمه على السلم الخشبى الذى كانت سيلفيا قد نشرت إحدى قوائمه ؛ حتى تمايل السلم بغتة ، وتصدع ، وماد بالشاب فى دوى يشبه فعقعة النار . فصرخ الشاب ثم اختنق صوته . فاندفع والده والعمدة إلى باب القبو مذعورين . وجن جنون برانتانو . فانبطح على الأرض ، وتعلق ببقايا السلم المتداعى ، وقفز إلى القبو العميق ، وغاب لحظة فيه ، ثم أرسل صوتاً ممزقاً متحشرجاً مخبولاً وجعل يردد : « مات . . . مات ولدى ! . . . »

فأجال العمدة حوله الطرف كمعتوه ، وظلت سيلفيا تحدق إلى باب القبو ذاهلة ومأخوذة وجامدة . . .

من تاريخ روسيا :

المنديل الأبيض

« التاريخ الروسي حافل بقصص التضحيات المجيدة التي بذلها أحرار الروس في سبيل التخلص من الحكم القيصري الجائر ومن سطوة الأشراف الإقطاعيين الذين كانوا يحالفون القيصر على استنزاف دم الشعب . وقد عثرت بين صفحات ذلك التاريخ على هذه القصة الوطنية الإنسانية التي كانت بطلتها فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ».

كانت تدعى « سونيا بتروفنا » وكانت تشتغل عاملة في أحد المصانع . فاتصل بها كاتب من الأحرار ، ثقفها وأرشدها ، وفتح عينيها على المظالم التي يرزح تحتها الشعب . فآمنت بالحرية ، واندمجت في صفوف المجاهدين وشرعت تكتب النشرات ، وتوزعها بنفسها ، حاملة فيها على الإقطاعيين والاشراف وعلى القيصر « إيفان الهائل » الذى استبد بالشعب استبداداً مروعاً ، وفاق طغيانه المرضى حد كل تصور . . . وشاء القدر أن يحب سونيا شاب من الأعيان هو ابن محافظ العاصمة وأن تحبه سونيا حباً شديداً . ولكن الفتاة التي كانت قد رصدت حياتها لتحرير بلادها ، أبت إلا أن تثير الشاب على طبقته ، وتدفعه إلى اعتناق مبادئها هي .

فآمن فيدور بالحرية مثلها ، واتصل خفية بها وأقسم لها أن يعترض مشيئة أهله ويتزوجها . غير أن رجال القيصر كانوا يتربصون بسونيا . فى اليوم نفسه الذى اعتزم فيه فيدور أن يتزوجها ، اقتحم رجال القيصر بيتها وألقوا القبض عليها وساقوها إلى السجن حيث أبلغت أن الحكم قد صدر بإعدامها . . .

وها هى ذى سونيا قابعة فى زاوية السجن ، ترسف فى القيود والأغلال ، وتتأمل ضوء الشمس وهو ينصب من كوة صغيرة ، ويرسم على الأرض السوداء خطاً أبيض متماوجاً يلمع كالأمل ويرقص كالحياة !

والحق أن سونيا برغم شجاعتها واستبسالها كانت مبهوتة ومذعورة حيال النهاية الفاجعة التى تنتظرها .

كانت لفرط حبها فيدور ، وفرط تلهفها على السعادة بقربه ، لاتتصور أنها يمكن أن تموت ، ولا تستطيع أن تسلم بأنها فقدت كل أمل فى الحب والحياة . فالواقع كان يقول لها إن مصيرها المحتوم هو الموت ، والحب كان يجذبها ويطغى على عقلها ويلقى فى روعها أن من الممكن أن تقع معجزة ترد إليها الامل وتبدل فى لحظة كل شىء . وهكذا كانت تتأرجح بين الإقدام فى بسالة على البذل والتضحية ، وبين الأمل فى الحب والحياة . . . وبرح بها هذا التوزع ، فنهضت وتقدمت صوب الكوة ، وجعلت تتطلع إلى ضوء الشمس ، وعز عليها أن تموت . . . شاهدت من الكوة جمال الدنيا . فذكرت نفسها ، وذكرت جمالها وشبابها ، وانتابها ضعف طارئ ساحق ، أفعم قلبها حسرة ولوعة ، وفجر من عينيها الدموع . . . وظلت تبكى والضعف يتمكن منها ، والحرقة على الامل الضائع تذهب بلبها وتصليها عذاباً لا يطاق . . . وفجأة فتح باب السجن ودخل منه الحارس يتبعه فيدور . وكانت الفتاة زائغة العينين ، غائرة الخدين ، محطمة ومسلوبة ، توشك أن تسقط صريعة الكمد واليأس .

فما إن أبصرت حبيبها حتى ارتمت عليه ، وضمته فى عنف إلى صدرها ، وخنقتها الشهقات والدموع . ولكن الشاب صاح بها وهو يغمرها بالقبل : « لابد أن أنقذك يا سونيا . . . سأبذل المستحيل لأنقذك ! . . . أنا ابن المحافظ ، وسمعتى ما تزال فوق الشبهات ، ولن يخيب لى القيصر سؤلا ... سأذهب إليه الساعة بنفسى وألتمس منه العفو عنك ، وأضمن سلوكك بحياتى . يجب أن نعيش ونتزوج ونستطرد الجهاد معاً يا سونيا ! »

فتفرست فيه الفتاة واختلجت . أحست أن الحياة الشائقة ، الحياة الغالية ، الحياة المنشودة الساحرة ، تتدفق عليها فجأة وتغمرها ، بل تجتاح صقيع نفسها كسيل من نار . . . واحتوتها هذه النار ، ولفتها فى سعيرها . فتاه رشدها ، وذابت إرادتها ، وانهارت على الأرض وهى تصيح وقد حطمها حبها وضعفها :

ــ اذهب . . . اذهب ولا تتردد فقد يعفو عنى القيصر وأعيش . . .

فقال فيدور وهو يعانقها :

ــ غداً موعد التنفيذ . فكونى شجاعة كما عرفتك . سيقتادك الحرس إلى الساحة الكبرى . فاتبعيهم شامخة الرأس ولا تستضعفى . وإذا رأيتنى مسرعاً إليك ألوح لك بمنديلى الأبيض ، فاعلمى أن القيصر قد أجاب سؤلى ، وأنى أحمل أمر العفو عنك . أما إذا رأيتنى ألوح بذراعى فقط ، فاعلمى أنى لم أوفق فى مهمتى ، وأنى لن أعرف بعدك امرأة ، وأن من واجبى أن أعيش لأستطرد جهادك ، كما أن من واجبك أن تموتى عظيمة كما عشت بطلة عظيمة يا حبيبتى !

فنظرت إليه الفتاة نظرة ممزقة ، نظرة ملؤها الأمل واللهفة والشكر وعرفان الجميل . ثم عانقته طويلاً ، وظلت تتبعه النظر حتى تقلص طيفه ، وغاب فى دهليز السجن . ولما أصبح الصباح كانت الجماهير قد احتشدت فى الساحة الكبرى لتشهد مصرع الفتاة . وكانت النفوس واجفة ، والقلوب

حانقة ، والعيون مشرئبة تحدق فى نقمة وبغض إلى المشنقة المنصوبة فى وسط الساحة كأنها فخ هائل أعدته يد جبارة لالتهام فريسة رائعة . . . وفجأة ظهرت سونيا وحولها رهط من الحرس . فتحركت الجماهير البائسة التى كانت تقدس الفتاة وتعبدها وترى فيها مثل الخلاص الأعلى . وانبعثت منها غمغمة هادرة تفيض بالحب والشفقة والتمجيد . . . وصعدت سونيا درجات السلم ، ووقفت على حافة المنصة ، وأجالت البصر فى الجماهير المعجبة الخاشعة ، وهى مسلوبة الحول ، ذاهبة اللب ، أشبه بغريق يصارع الموت جهده ، ويبحث يائساً عن حطام . . . . وفى تلك اللحظة لمحت فيدور ! . . . أبصرته قادماً عن بعد ، مشوش الشعر ، مشرق الوجه متألق العينين ، يشق عباب الجماهير الذاهلة ويلوّح بمنديله الأبيض ، ثم يندفع نحو رئيس الحرس ويصيح :

ــ إليك أمر العفو عن سونيا ! . . .

ولم يكد يصمت حتى وجمت الجماهير ، وخيم عليها بغتة سكون زافر ، ثم تقطبت الجباه ، وأظلمت العيون ، وتحولت الرؤوس ، وانطلقت من صدور الناس جميعاً صيحات حنق وسخط أعقبتها دمدمة زراية واستنكار . . . وتلفتت سونيا حولها ، وإذا بالجماهير التى كانت تقدسها ، الجماهير التى كانت تعبدها ، الجماهير التى كانت ترى فيها رمزخلاصها ، ترمقها بالنظر الشزر ، وترتد فجأة عنها ، وكأنها تقول لها إنها قد باعت وطنها لتشترى حياتها ، وإنها حانثة ومارقة وخائنة . . . وعندئذ ، عندئذ فقط ، أفاقت سونيا من سباتها وتمثلت لها فى مثل لمح الطرف صورة ماضيها . فرأت رئى العين جهادها المر الطويل ، وتضحياتها اليومية الخارقة ، وآلامها المطردة القاسية ، ومجدها النقى العتيد . فجن جنونها على نفسها ، وثارت ثورتها على ضعفها وحبها ، وكبر عليها أن تخون رسالتها وتخون هذا الشعب المعذب المسكين الذى كان يؤمن بها . فلم تنظر إلى فيدور ، ولا إلى عينيه

المبتهجتين ، ولا إلى منديله الأبيض ، بل استجمعت قواها ، وتحولت نحو رئيس الحرس وصرخت :

— إنى أرفض العفو ولتحيا الحرية ! . . .

ومشت إلى حيث يقف الجلاد ، ورفعت رأسها فى شموخ ، ثم أسلمت عنقها إلى حبل المشنقة !

من جزيرة العرب :

أقصى التضحية

كان يعيش بـ « الطائف » وفى واحة من واحاتها البعيدة ، شيخ إحدى تلك القبائل العربية المشهورة بالنخوة والشهامة والصلاح والتقوى .

ولم يكن ذلك الشيخ فى الواقع شيخاً ، وإنما كان رجلاً فى مقتبل العمر ، قوياً وجميلاً ومهيباً ، يرتدى على الدوام حلة سوداء ، ويطوق خصره محمل ثمين لسيفه موشى بالذهب .

وكان من عادة بعض تلك القبائل أن تقدم مثل هذا المحمل الثمين هدية من مالها للرجل الذى تحبه وتثق فيه وتميزه على أقرانه وتختاره شيخاً عليها .

وكان الشيخ مثال الطيبة والعدل والنبل . كانت الرحمة تملأ قلبه ، وحب الخير يملك عليه نفسه ، وفضائل الكرم والجود والإحسان أصيلة فيه . فأغدق من آلائه على كل بائس محروم . فأحبه أفراد قبيلته حباً عظيما ، وتعلق به الفقراء ومجدوه ، وأخلص له الكل إخلاصاً منقطع النظير .

وكان مقترناً بامرأة باهرة الحسن ، تقية وورعة ، ذات عينين صافيتين كصفحة الجدول الرقراق .

وكان سعيداً بحب الفقراء له ، وسعيداً بحبه لقبيلته ، وحبه لامرأته ، وحبه لطفله الوحيد ، وللمربية الأمينة التى ترضع هذا الطفل وتتفانى فى

رعايته والسهر عليه كما لو كان قد صيغ من صميم أحشائها .

وكانت هذه المربية أرملة بائسة شريدة لا أهل لها وذات طفل وحيد هي الاخرى ، أبصرها الشيخ في ليلة شتاء قابعة تحت شجرة ، تستجدي السابلة وتبكي ، والبرد يفرى عظامها الناتئة ، والجوع يكاد يقتلها هي وابنها . فأشفق الشيخ عليها ، وكفلها ، وعهد إليها بطفله ترضعه من ثدييها وتربيه مع طفلها في كنف المرأة التقية الورعة زوجة الشيخ .

ولم تكن الأرملة البائسة لتحلم يوماً بمثل هذا الحظ العظيم . فقدرت صنيع الشيخ المحسن الكبير ، وأولعت بابنه الصغير الحبيب ، وأخلصت جهدها في خدمة السيدة الوالدة التي كانت مشغوفة حباً بابن المربية بقدر ما كانت مشغوفة بابنها هي .

وكانت المربية تعيش في خيمة قريبة من خيمة الشيخ ، قام في أحد أركانها سرير حديدي مجلل بالحرير يرقد فيه ابن سيدها ، وسرير آخر من الجريد يرقد فيه ابنها . وكانت كثيراً ما ترضع ابن سيدها وتنسى ابنها ، وكثيراً ما تسهر الليل بجوار ابن سيدها وتغفل عن صياح وعويل ابنها . والحق أن قلبها كان موزعاً بين الطفلين ، هائماً بين السريرين . ولكن ابن سيدها كان يستأثر بعطفها وكانت كلما حنت عليه وأرضعته طويلاً ، أبرأت ذمتها وأرضت ضميرها وأبصرت في ضحكة الطفل الناضرة صورة عرفانها للجميل وإخلاصها العميق لسيدها .

وهكذا كانت نعمة السعادة ترفرف على الخيمتين وتخفق في قلوب أفراد القبيلة وقلوب التعساء والمحرومين ، وتحلق بأجنحة ناصعة البياض فوق أرجاء الواحة كلها .

وفجأة تبدل الفرح ترحاً ووقع ما لم يكن في الحسبان .

خرج شيخ القبيلة ذات يوم للصيد والقنص . وكان من عادته أن يسبق رفاقه ويتوغل بمفرده في البراري والقفار البعيدة ، ثم يعود بصيده

فيقدمه مبتهجاً لزوجته .

فى ذلك اليوم المشئوم أمعن الشيخ فى الابتعاد عن أصحابه . وانطلق بجواده ينهب الارض ، وتغلغل فى بطن واد عميق لم يكن قد طرقه من قبل .

وتقلص النهار ، والتهب قرص الشمس ، ثم جن الليل ولم يعد الشيخ . فقلق عليه رفاقه ، وجد رجال القبيلة فى البحث عنه ، وظلوا الليل بطوله يجوبون البرارى والقفار ، ويصيحون وينادون على غير جدوى .

ولما انقضت أيام ولم يعد الشيخ ، مزق الألم قلب الزوجة اليائسة . فأمعنت فى البكاء واتشحت بالسواد ولزمت خيمتها ، وآلت على نفسها ألا تغادر الخيمة إلا إلى القبر . وكانت الزوجة تبكى والمربية أيضاً تبكى . وبات الطفل الصغير ابن الشيخ قبلة حياتهما ، وسلوى روحيهما ، وغايتهما الوحيدة فى هذه الدنيا .

وفجأة تبدل كل شىء مرة ثانية ووقع حادث أفجع وأهول من حادث الأمس .

كان يتحكم فى إحدى مناطق الصحراء المجاورة أحد الأشقياء السفاحين قطاع الطرق . فلما بلغه نبأ اختفاء الشيخ المحسن الطيب النبيل ، وسوس له شيطانه أن يغزو قبيلته ، ويسبى امرأته ، ويقتل طفله الوحيد . فاتأد وتمهل ، وحشد رجاله ثم عزم .

وفى ليلة من الليالى ، والقمر تحجبه السحب ، زحف المجرم قاطع الطريق وأطبق بغتة على الخيام الآمنة . فلم يكد يتنبه أهل القبيلة حتى وثبوا من مراقدهم ، وفزعوا إلى عتادهم ، وهبوا هبة رجل واحد للدفاع عن زوجة شيخهم وعن ابنها الصغير الذى كانوا قد أقسموا أن يكون هو شيخهم وسيدهم بعد أبيه .

وتقابل الجمعان بالسيوف ، وتطاعنا بالرماح ، وتراشقا بالسهام ،

واستبسل أفراد القبيلة ثم كروا مهاجمين . ولكن رجال المجرم المغتصب تكاثروا عليهم ، وشقوا نطاقهم ، واجتاحوا الخيام ، وهددوا كل من فيها بالموت أو التسليم .

وذهب الرعب بلب زوجة الشيخ . فألفت نفسها بعيدة عن زوجها ، أسيرة فى خيمتها ، يطوقها الغزاة من كل صوب . فصرخت تطلب ابنها وتنادى المربية . وظلت تصرخ وتبكى وتكاد من فرط الرعب واليأس أن تقع مغشياً عليها .

وفى تلك اللحظة كان الغزاة قد توجهوا إلى خيمة المربية وهم ينذرون ويتوعدون . فأدركت المرأة مرادهم . فهلع قلبها ، وجن جنونها ، وأيقنت من موت الطفل الحبيب ابن سيدها ومنقذها وولى نعمتها . وفى مثل خطف البرق جاشت نفسها ، والتهب خيالها ، وحفزها عرفان الجميل . فأرادت أن تنقذ ابن سيدها وفاء لدين أبيه عليها وعلى جميع البؤساء والمحرومين من أفراد القبيلة وأهل الطائف .

وغمرتها نشوة التضحية والفداء ، فلم تتردد وتقدمت بخطى ثابتة وحملت طفلها الوحيد على ذراعها ، ثم حملت ابن سيدها على الذراع الأخرى ، ثم أرقدت ابن سيدها على سرير الجريد الذى كان يضطجع فيه ابنها ، وأرقدت طفلها هى على السرير الحديدى المجلل بالحرير . ولم تكد تفعل حتى تدفق الغزاة على الخيمة ، وانهالوا بسيوفهم على السرير الحديدى الانيق يطعنون ابن المربية وهم يعتقدون أنه ابن شيخ القبيلة ، وأن موته لابد أن يشيع الهلع والذعر بين أفرادها .

ولبثت المربية تحدق فيهم وهم يقتلون طفلها دون أن تند عنها زفرة . وفيما هم يوسعون الطفل طعناً ، ويهمون بالتحول صوب الخيمة المحاصرة فيها زوجة الشيخ ، تصاعدت فجأة من أطراف الناحية صيحات كأنها الرعد القاصف . فاضطرب الغزاة وماجوا ، وتلفتوا حولهم فى ذهول . وإذا بهم

تجاه جمع غفير من الفقراء والبؤساء الذين كانوا لم ينسوا فضل الشيخ الكريم عليهم ، يتقاطرون من كل حدب وصوب وهم يهدرون ويزأرون ، ملوّحين بالمناجل والفؤوس والعصى ، عازمين على الثأر لشيخهم ، والفتك بالسفاحين الغزاة .

واشتبك الفريقان فى صراع دموى طويل . فتشجع أفراد القبيلة ، وتنادوا ثم ضموا صفوفهم ، وكروا مهاجمين . وعندئذ وفى لجب القتال وهوله ، علت صرخة مدوية تلتها صرخات هتاف أرسلها رجال القبيلة وجميع البؤساء فى شبه هوس وجنون . فاشرأبت المربية بعنقها ونظرت . فأبصرت الغزاة يفرون مندحرين ، ورأت ، رأت بعينها المبهوتة رأس المجرم ، رأس الشقى قاطع الطريق ، يترنح فى الهواء مقطوعاً ومعلقاً على قمة عصا . فخلبها الفرح ، وهزها المجد ، وأثارها النصر . فتقدمت من فورها ، وشقت صفوف البؤساء ورجال القبيلة الظافرين ثم صاحت بأعلى صوتها وهى تكشف الستار عن سرير الجريد وتومئ بأصبعها إلى الطفل الصغير :

— عاشت لكم إلى الأبد حريتكم . . . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ! . . . ها كم ابن سيدكم . . . إنه حى ! . . . ؟!

وماجت الجموع كالبحر الزاخر ، واندفعت نحو السرير تتقدمها زوجة الشيخ . ولم تكد المرأة تدخل وترى ابنها راقداً على سرير الجريد ، وبجواره ابن المربية ملقى على السرير المجلل بالحرير ، مثخناً بالجراح ومضرجاً بالدم ، حتى تراجعت وجمدت ثم استضاء عقلها بغتة ، فصاحت بالمربية كمعتوهة :

— ماذا فعلت ؟! . . .

فأجابت الأرملة الثكلى :

— أرقدت ولدى فى سرير طفلك ليقتله الغزاة فداء لابن سيدى النبيل

الكريم ! . .

وفى تلك اللحظة ، وقبل أن يضج الجمهور بالهتاف ، شوهد عن بعد رجل مجهد ومنهوك ، محدودب الظهر ، مشوش الشعر ، معفر الوجه بالتراب، يزحف على الأض زحفاً ويصرخ :

ـ أوشك أسد أن يفترسنى . . . ولكنى نجوت منه . ثم أضنتنى جراحى فلم أستطع أن أعود . فعشت هذه الأيام الطويلة أقتات من ورق الشجر حتى ارتدت إلى قواى . . . فأين ولدى . . . وأين زوجتى . . . وماذا حدث ؟ . . .

فذهل الجميع ولم يصدقوا أبصارهم ، وعرفوا فى الرجل شيخهم المفقود. فأنهضوه وأحاطوا به مرحبين مهللين. وطفقت زوجته التى استطار الفرح لبها ، تقص عليه ما وقع وما كان من أمر المربية الوفية التى ضحت بابنها كى تنقذ طفله العزيز الوحيد . فارتفع صوت الشيخ قائلاً : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » . ثم اندفع نحو الأرملة الثكلى وضمها إلى صدره بين هتاف الجموع المأخوذة ، وصاح بها وهو يعانقها عناق الشقيق لشقيقته :

ـ اطلبى . . . اطلبى ما تشائين . . . لأنت خير امرأة من خير قبيل !

فرفعت المربية رأسها ، وتأملت الشيخ . تأملت محمل سيفه ، المحمل الثمين الموشى بالذهب والذى كان من عادة تلك القبيلة أن تقدمه لشيخها . ثم قالت فى ثبات :

ـ أعطنى محمل سيفك يا مولاى . . .

فأجفل أفراد القبيلة ، وانبعثت من صدورهم غمغمة استنكار . ولكن الشيخ أسرع وانتزع المحمل من خاصرته . فتناولته المرأة وقبلته ، ثم رفعته بين يديها ولوحت به للجماهير ، ثم تقدمت بخطى وئيدة ،

وانحنت على الطفل العزيز ، وطوّقته بالمحمل وصاحت بالشيخ :

ـ لن يفارق العز والمجد بيتك يا مولاى . مد الله فى عمرك ، وصان الحرية الغالية لأهلك وعشيرتك ، وجعل ابنك الشيخ والسيد من بعدك . ما أنا فلاأطلب لنفسى شيئاً . فابن مولاى هو اليوم حشاشتى وولدى ! ..

فانفجرت عندئذ حماسة الجموع ، وشق هتافها عنان السماء ، بينما كانت المربية الوفية ترتمى على الطفل الحبيب ، وتأخذه بين ذراعيها ، وتقبله فى لهفة محمومة وقد انهمرت من عينيها الدموع .

من تاريخ الإسكندرية :

شهيدة النور

« هذه القصة تمثل صورة من جهاد آخر ، هو جهاد الفكر الحر فى بحثه المطرد عن الحقيقة والنور . »

* * *

مشت الفتاة فى الرواق الطويل المؤدى إلى حجرة نومها ، ثم دخلت الحجرة وأوصدت الباب ، وارتمت على حافة فراشها دون أن تتجه صوب المصباح الزيتى الصغير وتوقد النور .

وكان الظلام حالكاً ، والإسكندرية راقدة ، والبحر وحده هو المستيقظ تهدر أمواجه هديرها الأبدى .

واشتد الهدير فى نفس الفتاة . فهبت واقفة ، ودنت من النافذة المفتوحة ، واشرأبت بعنقها وجعلت تحدق إلى البحر .

وفجأة تمزقت السحب المتكاثفة ، وبرز القمر ، وألقى شعاعه الفضى على المياه الجائشة . فتلألأت ولاح فى سطحها بدن جميل يتقلب عليها تقلب السابح الحاذق المنتشى .

واختلجت الفتاة وهمت بأن تغلق النافذة . ولكن البدن الجميل انبثق إذ ذاك من جوف المياه ، وقفز إلى الأرض فارعاً وممشوقاً ، ثم اكتسى بمئزر أحمر ، وعبر الشاطئ واستقام فى الحجرة الساكنة .

وكان بدناً قوياً متكتل العضلات ، يعلوه رأس مكلل بشعر أسود مموّج ، تطل منه عينان ساحرتان ، تخفق أهدابهما المستطيلة على خدين مضرجين بحمرة لامعة تشبه حمرة التفاح .

وتراجعت الفتاة مرتعشة وغمغمت :

ـــ أبولونيوس !

فأسرع الشاب وأوصد النافذة التي وثب منها ، وكر راجعاً يريد أن يحتضن الفتاة . بيد أنها ردته عنها في رفق ، ثم أمسكت به في تلهف ، ثم عادت ودفعته في عزم وقالت :

ـــ الحب رب من الأرباب يا أبولونيوس ، وكذلك الفكر . . . وأنا لن أعبد ربين وإلا كنت مارقة ومنافقة ! . . لا تظن لأنك رئيس حرس الحاكم والشخصية الثانية المرموقة في هذه المدينة أني سأنكر من أجلك رسالتي . . . لا . . . لن أكون لك أبداً يا أبولونيوس !

فجثا الشاب عند قدمي الفتاة وصاح :

ـــ أنا مسيحي ، ولكني مستنير ومؤمن بتعاليمك أيضاً يا حبيبتي . فلا تفصلي بين العقل والجسد ، أنت التي تنادين بضرورة الجمع بين الجسد والعقل كي تتم على الإنسان فرحته بوجوده فيحب الفكر ويحب الحياة ، يجب أن تكوني أنت المثل الحي لدعوتك . يجب أن تكوني امرأة . . . يجب أن ينبض فيك القلب كما ينبض العقل . وها هو ذا قلبك المتحرق المحتدم يكاد خفقانه يشق قميصك . . . أنت تحبينني ! .

فسرت قشعريرة في جسم الفتاة وترنحت . ولكنها غالبت نفسها ، وكبحت ما استطاعت ثورة دمها وأعصابها ، وقالت وهي ثابتة ، ورأسها شامخ وعيناها تتوهجان :

ـ كان سقراط متزوجاً فشقى ، وحتى لو سعدت أنا بزواجى بك فالسعادة لابد أن تقتلنى . كيف تريد أن أفكر فى سعادتى ثم أفكر فى الناس . كيف تريد أن أحبك وأحبهم . كيف تريد أن أخلص لهم وأخدمهم بينما أنا موزعة النفس بينك وبين بيتى وأولادى ؟ . . . لا يمكن الجمع بين الجسد والعقل لمن يريد أن يعيش للعقل خدمة للناس . الآلهة لا تتزوج غير آلهة مثلها . وأنا قد اقتديت بالآلهة ولن أتزوج غير الفكر الذى هو أيضاً رب ومعبود ! . . . تلك هى رسالتى . فاحترمها يا أبولونيوس وانصرف عنى . .

فصرخ الشاب :

ـ الفكر خيال ، وهو لم يسعد قط إنساناً .

فقالت الفتاة :

ـ الفكر حقيقة . وبالفكر يغير العباقرة وجه العالم . أما السعادة الفردية فأنانية رخيصة لا يفيد منها صاحبها إلا على حساب خير الناس ونطور الدنيا . . . فاذهب بسلام يا أبولونيوس ولا تعذبنى . . . إنى أتمزق فاشفق علىّ . . .

فأخذ الشاب يديها بين يديه ، وطفق يلثم أصابعها ويردد :

ـ أنت تحبيننى . . . لا تقتلى نفسك .

فقالت وهى تزفر :

ـ إنما أنت الذى تقتلنى . . . عبثاً تحاول . لن أكون لك ولا لغيرك . انصرف ولا تدعنى أكرهك ، ولا تضطرنى إلى الصياح وإيقاظ والدى ! . . .

فامتقع وجه الشاب ، وتصدع بدنه ، وخيل إلى الفتاة أنه سيتداعى ويسقط . فطوّقته بذراعها ، ومالت إليه بفمها ، وطبعت على جبينه الناصع

البياض قبلة . ثم دفعته نحو النافذة فى حنان ، وقالت له وهى تلهث :

ـ أنت أخى . . . الوداع . . . الوداع يا أخى !

فرفع إليها الشاب بصره الحانق . فألفاها جامدة كأنها تمثال . فأيقن أنها لن تضعف ولن تتحول . فاشتد سخطه وحنقه . ولكنه تماسك، وهز رأسه كمن يتوعد . ثم استجمع قواه ، ووثب من النافذة ، وارتمى على الشاطئ .

وعندئذ فقط ، شخصت الفتاة إلى طيفه ، إلى طيفه الذى كان يسرى على حافة البحر الهادر ثم مدت ذراعيها فى جنون ، ثم ردتهما فى فى تشنج ، ثم انتفض بدنها كله . فأوصدت النافذة ، وبكت . . .

ولكن من هى هذه الفتاة ، من هى هذه الانثى التى لم تشأ أن تكون أنثى ، ولم تشأ أن تكون حبيبة وزوجة وأماً ، ووهبت نفسها للفكر المجرد مدى الحياة ؟ . . .

هى الفتاة العظيمة « هيباتيا » ، بنت الفيلسوف « تيون » ، التى ولدت فى الإسكندرية عام ٣٧٠ للميلاد وماتت عام ٤١٥ ، والتى أشربها والدها حب الرياضيات والفلسفة . فاشتهرت بشرح فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ونشرت الثقافة اليونانية فى بلاد الشرق . فأسند إليها كرسى الفلسفة فى جامعة الإسكندرية .

وكان الصراع إذ ذاك على أشده بين الفكر المسيحى النامى ، وبين الفكر اليونانى والفلسفة اليونانية . وكانت الإسكندرية ميدان هذا الصراع . فانقسم كهنة النصارى إلى فريقين : فريق متطور مستنير لا يخشى على الدين من العلم ، ولا يرى أى خطر على الدين من الثقافة بل يقول ان المعرفة الشاملة غريزة فى الإنسان وأن الدين يأمر بها وأن فلسفة أفلاطون نفسه هى فلسفة معنوية روحية تؤيد تعاليم الدين وتدعمها . وفريق متأخر

متزمت متعصب يدعو إلى الإيمان مقروناً بالجهل . ويخشى من الثقافة على الدين ، ويقول ويؤكد إن الكتاب المقدس قد وعى كل شيء ، وأن هذا الكتاب يغني الإنسان عن غيره ، وأن من واجب المؤمنين المخلصين أن يحاربوا المعرفة الحرة ، وأن يقاوموا ما استطاعوا كل من يدعو إلى نشر ثقافة اليونان باعتبار أن هذه الثقافة المستمدة من العقل البشرى الحر هى الكفر بعينه .

وكان على رأس هؤلاء المتعصبين الرجعيين كاهن يدعى (سيريل) ، وثيق الصلة بأوساط الشعب المتدينة الجاهلة ، يبشر فيها بآرائه الرجعية ، وينفث فى أفرادها روح التعصب ، ويحثها على مقاومة الأحرار من المفكرين ولو بالعنف .

هذا الرجل كان ألد أعداء هيباتيا ، كان يرى أن هذه الفتاة ذات الشعر الأسود الغزير والعينين الحادتين الخالبتين ، والانف الدقيق ، والفم الصغير ، والبشرة الناضرة ، هذه الفتاة التى يجتمع فيها جمال المرأة بعقل الرجل ، هى أخطر على الدين من أى رجل ، لأن جمالها يجذب الناس قبل ذكائها ، ويلقى فى روعهم أن ما تقوله هو الحقيقة التى لا ريب فيها .

بيد أن « أورست » حاكم الإسكندرية المشبع بثقافة اليونان ، كان يذود عن هيباتيا ويحميها . فاشتد العداء بين الحاكم والكاهن . فاستند الحاكم إلى سلطته ، واستند الكاهن المتعصب إلى نفوذه وتأثيره فى الأوساط الجاهلة من جماهير الشعب .

وهكذا كانت هيباتيا ، وظل الحاكم يرعاها ، تقوم بتدريس الفلسفة اليونانية جهرة ، وتدعو إليها فى الجامعة والمنتديات ، وتعقد لها الحلقات فى الشوارع ، حيث تجلس هى على الأرض وحولها جمع من مريديها ،

يحدقون إليها بعيون ظامئة ، ويستمعون لصوتها العذب الرخيم وهى تشرح لهم كل خاف ومستغلق من آراء أفلاطون وأرسطو .

* * *

فى صباح تلك الليلة التى تمزق فيها قلب هيباتيا والتى صارحت فيها حبيبها أبولونيوس بأنها ستهب ذاتها وحياتها لخدمة الفكر ولن تتزوج ، خرجت الفتاة من بيتها ، متشحة بمئزرها الابيض ، وشعرها الغزير يتهدل على كتفيها ، ومشت مرفوعة الرأس ، منصوبة القامة ، واتجهت بخطى وئيدة صوب صخرة عالية قائمة على الشاطئ ومطلة على البحر .

ولم تلحظ وهى تمشى أن عينا ترقبها ، ورجلاً متسللاً يتبعها . فظلت تمشى حتى بلغت الصخرة فارتمت عليها ، وتفرست فى البحر ، وانطلق من صدرها الناهد شبه أنين . وما هى إلا فترة حتى أقبل عليها مريدوها ، والتفوا حولها ، وهتفوا لها . فاندس بينهم رهط من الدهماء أتباع الكاهن المتعصب سيريل ، وطفقوا هم أيضاً يهتفون ويهللون .

وابتهجت الفتاة بهذه التحية وشرعت تعلم وتقول فى صوت جهير :

ــ الله معرفة ونور . وهو جل جلاله إذا كان قد أودع نوره قلوب الرسل والأنبياء ، فذلك ليقبس الإنسان النور منهم ، ويدرك أن فى وسعه بهذا النور أن يفكر بعقله المستقل ويتصل بنور الله نفسه . فالفلسفة لا تعترض الدين . إذ الدين عاطفة وضمير . والفلسفة بحث فى أصل هذه العاطفة وهذا الضمير ، إعلاء لشأن الإنسان ، وتمكيناً له من فهم سر وجوده ، ومعالجة شئون دنياه ، والجمع بين ضميره الدينى وعقله البشرى فى وحدة واعية ورائعة ترمز إلى الوحدة الكاملة الكبرى التى هى الله .

وصمتت هيباتيا وقلبها يخفق ، والعرق يتصبب على وجهها الساحر . فهتف لها المريدون ، وانبرى لها المتعصبون ، وطفق بعضهم يجادلها ، والبعض الآخر يسفه آراءها ويزجرها ، وهى متحملة وصابرة ، ترد على هذا ، وتفحم ذاك ، وتخاطب الكل فى عبارات سمحة رقيقة ، تشفعها بالمنطق المحكم والبرهان المتين .

وفجأة ، وبينما هى تتكلم ، ونشوة الفكر تجرفها ، وحماسة المجاهدة والإقناع تلهب عينيها النابتتين وتشيع فى بدنها المختلج وقدة الحمى ، ظهر الرجل المتسلل الذى كان يتبعها ، واقتحم الجمع المحتشد ، واستقام بغتة أمامها .

وحدقت إليه هيباتيا ، وعرفت فيه أبولونيوس ، فارتجفت .

ولم يكن من عادة الشاب المترفع المستكبر أن يؤم حلقاتها ويجلس بين صفوف الشعب . فتفرست فيه واستغربت ولم تفهم . . . أما هو المفتون بها ، والمحترق بحبها ، والناقم على صدها وإعراضها وما أخذت به نفسها من تبتل وتضحية وحرمان ، فقد كان يعلم أن حماية الحاكم مبسوطة عليها ، ويعتقد أن ليس فى مقدور الكاهن المتعصب وأنصاره أن يصيبوها بأى أذى . فأضمر فى نفسه أن يكون هو الذى يعترضها ، وهو الذى يتحداها ، وهو الذى يثير ثائرة المتعصبين عليها . حتى إذا ما أطمعهم فيها وأبصرهم يصرخون ويلعنون ويلتئم جمعهم فى شكل مظاهرة تهدد حياتها وتهدد الأمن والنظام ، أسرع وشق صفوفهم ، وحمل الفتاة إلى دار الحاكم ، ثم التمس منه بوصفه رئيس حرسه وصديقه أن يقيل هيباتيا من وظيفتها فى الجامعة ، ويأمرها بالكف عن نشر الفلسفة والعلم شفقة عليها ورحمة بها وإقراراً للنظام فى المدينة المضطربة المنقسمة

على نفسها . وعندئذ تدرك الفتاة أنها أصبحت فى الإسكندرية عامل فوضى ، وأنها امرأة ، وأن تدريس الفلسفات والعلوم ليس من شأنها . فتفكر مكرهة فى مصيرها ، وتضطر إلى التزوج بأبولونيوس .

هذا ما أضمره الشاب الذى كان قد أقبل مصحوباً بخمسة من أتباعه رجال الحرس . فلما سمع الفتاة وهى تبشر بتعاليمها ، وأبصر المتعصبين الساخطين متربصين بها ، لم يتردد ، وتوسط الجمع المحتشد ، ولوّح بذراعه ، وصرخ فى وجه هيباتيا :

ــ هذا كلام الزنادقة والكفرة يا فتاة ! . . . لن نؤخذ به ، ولن ندع العقل البشرى الناقص يستكبر على القوة التى خلقته ! . . . الدين والعلم لا يتفقان . . . نحن لسنا فى حاجة إلى علم . . . فى الكتاب المقدس وحده كل الحقيقة وكل العلم ! . . .

فانبعثت غمغمة هادرة من بين صفوف المتعصبين . وذهلت هيباتيا ، وجحظت عيناها ، وأيقنت أن أبولونيوس يريد أن ينتقم منها . ولكن جماعة المريدين الأوفياء تصدوا لنقاشه ، وثبتوا فى وجهه ، وهددوه بالشكوى إلى الحاكم نصير العلم . فقال لهم إن مهمة الحاكم هى الذود عن الأمن ، وإن هيباتيا تنشر الفوضى ، وإنه بوصفه رئيس الحرس والمقدم على زعيم الشرطة نفسه ، يجب أن يصون سلامة المدينة وحياة الحاكم ويفض كل مظاهرة وكل اجتماع .

وتحول نحو الفتاة وصاح :

ــ طاردوها . . . إلى بيتها ! . . .

فتشجع عليه أنصار الكاهن سيريل ، وهال الفتاة من أبولونيوس أن ينقلب حبه الشديد لها إلى بغض . فتفطر قلبها ، وهمت مع ذلك بأن ترد عليه فى تسامح ورفق . ولكنه لم يمهلها ، والتفت إلى الجمع يستفزه ويثيره

واستطرد :

ـ هذه المرأة عدوة الله . . . لا يجب أن تتكلم ، أو تكتب ، أو تظهر فى الشوارع أو فى أى محفل عام . . . طاردوها . . . إلى بيتها . . . إلى حيث تغزل الصوف وتدرك أنها امرأة !

وأعماه حبه وحنقه . فاندفع أنصار الكاهن المتعصب ، وبرزوا من بين صفوف الجمع الزاخر ، ملوّحين بقبضاتهم ، مهددين بعصيهم ، منقضين على المريدين والفتاة وهم يرددون :

ـ إلى غزل الصوف يا امرأة . . . إلى غزل الصوف . . .

واتقدت المظاهرة التى كان ينشدها أبولونيوس . فأسرع وأهاب بأتباعه الخمسة رجال الحرس ، وأمرهم بأن يحملوا هيباتيا إلى قصر الحاكم . ولكن الفتاة التى أسخطها مسلك حبيبها ، والتى كبر عليها أن تنكر رسالتها ، وتضعف وتستخذى أمام الجماهير الجاهلة المتعصبة الظالمة ، نحت عنها رجال الحرس فى عنف ، وصاحت بأعلى صوتها :

ـ هذا الرجل يخدعكم . . . يريد أن يسومكم الجهل والفقر باسم الدين لينعم هو وأمثاله بالدنيا على حسابكم . . . الدين هو العدل . . . الدين هو العلم . . . الدين هو الحرية . . .

فصرخ متعصب مجذوب :

ـ إنها تجدف . . . تقول إن علمها هو الدين ، وإذن فالعلم فى زعمها يحل محل الله . . . لا ترحموها . . .

وعندئذ انفجر مرجل التعصب فى صدور الجماهير . فتصايحت وتنادت وتكاثرت ، وخرجت من شتى الأزقة والدروب ، واجتاحت

المريدين ، وأطبقت على أبولونيوس الذى لم يقدر لفرط كبره وحنقه بأس الكاهن سيريل وأتباعه ولم يتوقع انقلاب المظاهرة إلى ثورة . فاستل خنجره ليحمى هيباتيا ، وأمر جندياً من رفاقه بأن يسرع ويدعو فرقة الحرس . وكان وأصحابه الأربعة مشهرين سلاحهم ، مطوقين الفتاة بأذرعهم ، والفتاة تنظر مبهوتة إليهم ، وقد فطنت الآن فقط إلى النية البعيدة التى انطوى عليها مسلك أبولونيوس ، وأدركت وهى تتفطر أن حبه الأنانى هو الذى دفعه وأعماه . . . وظل الشاب يذود عنها ، ويحاول أن يكبح الجماهير حتى يخف إليه من ينجده . ولكن الجماهير الثائرة كانت قد تنبهت ، وأسرعت وقبضت على الجندى وحالت بينه وبين طلب النجدة. ثم كرت على أبولونيوس ورجاله. فطعن أحدهم بخنجره فرداً منها . فهاج هائجها ، وارتمت على أبولونيوس وصحبه ، وأوسعتهم ضرباً وركلا ثم غافلتهم وهم يدافعون عن الفتاة وأنفسهم مستبسلين ، وانتزعت هيباتيا من أيديهم ، وجرتها إلى وسط الطريق العام ، وطفقت تقتلع الأحجار من الأرصفة والشاطئ وتنهال بها رجماً على الفتاة .

وكانوا يقذفونها بالأحجار وهى مذعورة وتائهة ، مخبولة ومستسلمة ، تتطوح كالغريق والدم ينزف منها ، وعينها الزائغة البائسة المقهورة ترمق حبيبها والجماهير بنظرة ملؤها الشفقة والرثاء والحسرة .

وحيال هذا المشهد المروع جن جنون أبولونيوس . فوثب كالوحش الكاسر ، واندفع يضرب بخنجره كل من يعترضه ، ويحاول أن يبلغ الطريق العام كى ينقذ هيباتيا قبل أن تفتك بها الجماهير .

وما إن اخترق الصفوف متبوعاً برجاله ، وهم بأن يتجه صوب الفتاة ، حتى أبصر فرقة الفرسان التى كان قد بلغها النبأ من أحد المريدين تقبل مسرعة . فأبرقت عيناه ، واشتد عزمه ، واندفع أيضاً يريد أن يختطف

هيباتيا وينطلق بها . ولكن الجماهير التى غاظها مقدم الحرس ، لم تتفرق ، بل تجمعت وتساندت وأمعنت فى رجم الفتاة . فتمزق بدنها ، وتهشم رأسها ، وتهاوت وسقطت على الأرض . فقفز إليها أبولونيوس وجعل يهزها ويناديها ، والجماهير تسدد إليه أذرعها ، والأحجار تتساقط من كل صوب عليه .

ولما ألفاها جثة شوهاء لا حراك بها ، تاه عقله ، وتقطع قلبه ، واشتعل حبه وضميره . فلم يستطع أن يتصور كيف أقدم على هذه الفعلة ، وكيف يمكنه أن يعيش فى الغد بعد هيباتيا . فلم يعبأ بصرخات فرقة الحرس التى كانت تستنهضه وتحذره وتحثه على ترك الفتاة ، بل جثا على الأرض ، على الأرض الصلبة الغاشمة الحمراء ، وضم حبيبته إلى صدره ، ثم قبلها ، وترك الأحجار كوابل المطر تنهمر عليه .

وهكذا مات أبولونيوس مكفراً عن حبه الأحمق المستكبر الأعمى ، وذهبت الفتاة العظيمة هيباتيا ضحية أنانية الرجل ، وفريسة التعصب ، وشهيدة حرية الفكر والضمير .

فهرست الكتاب

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر